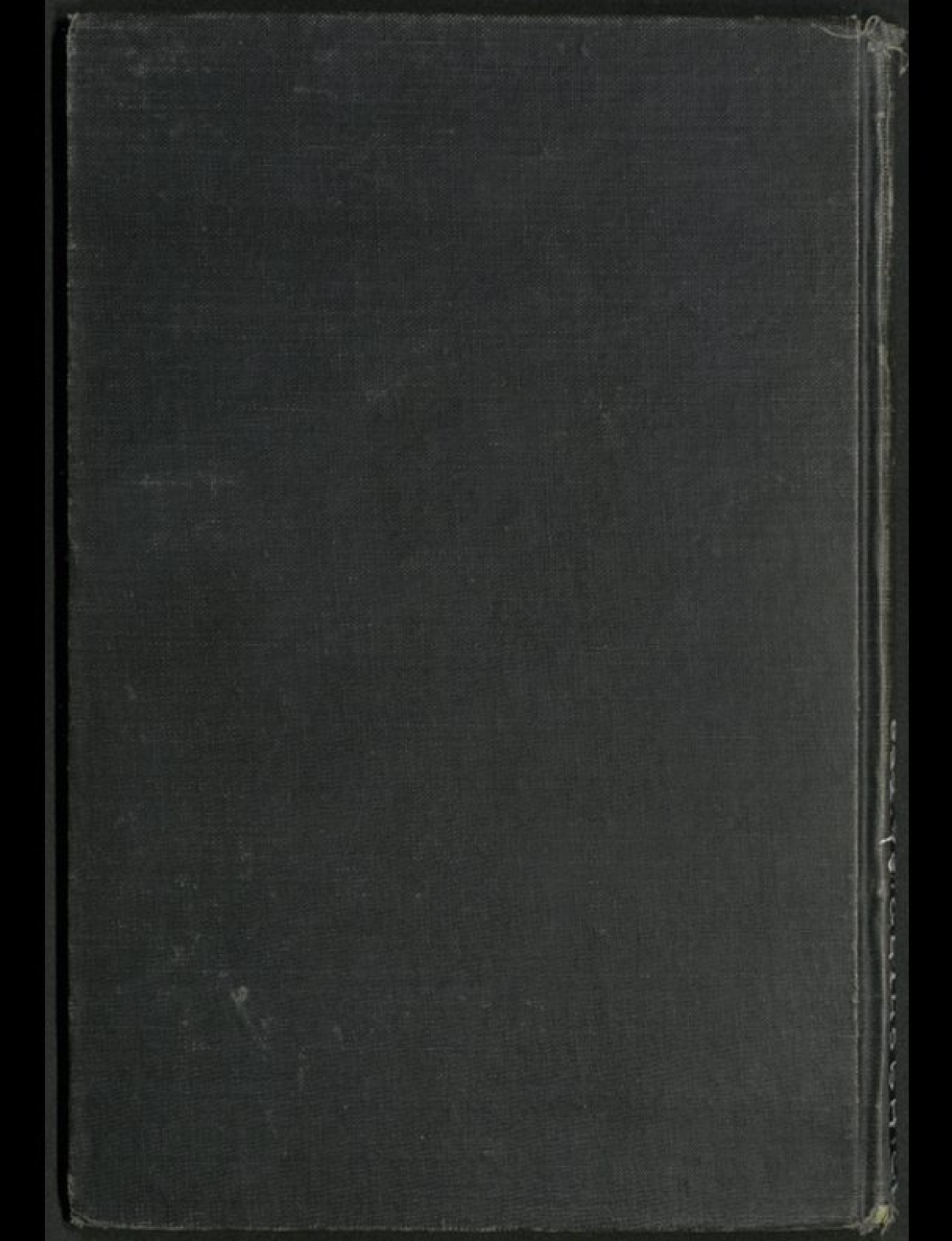
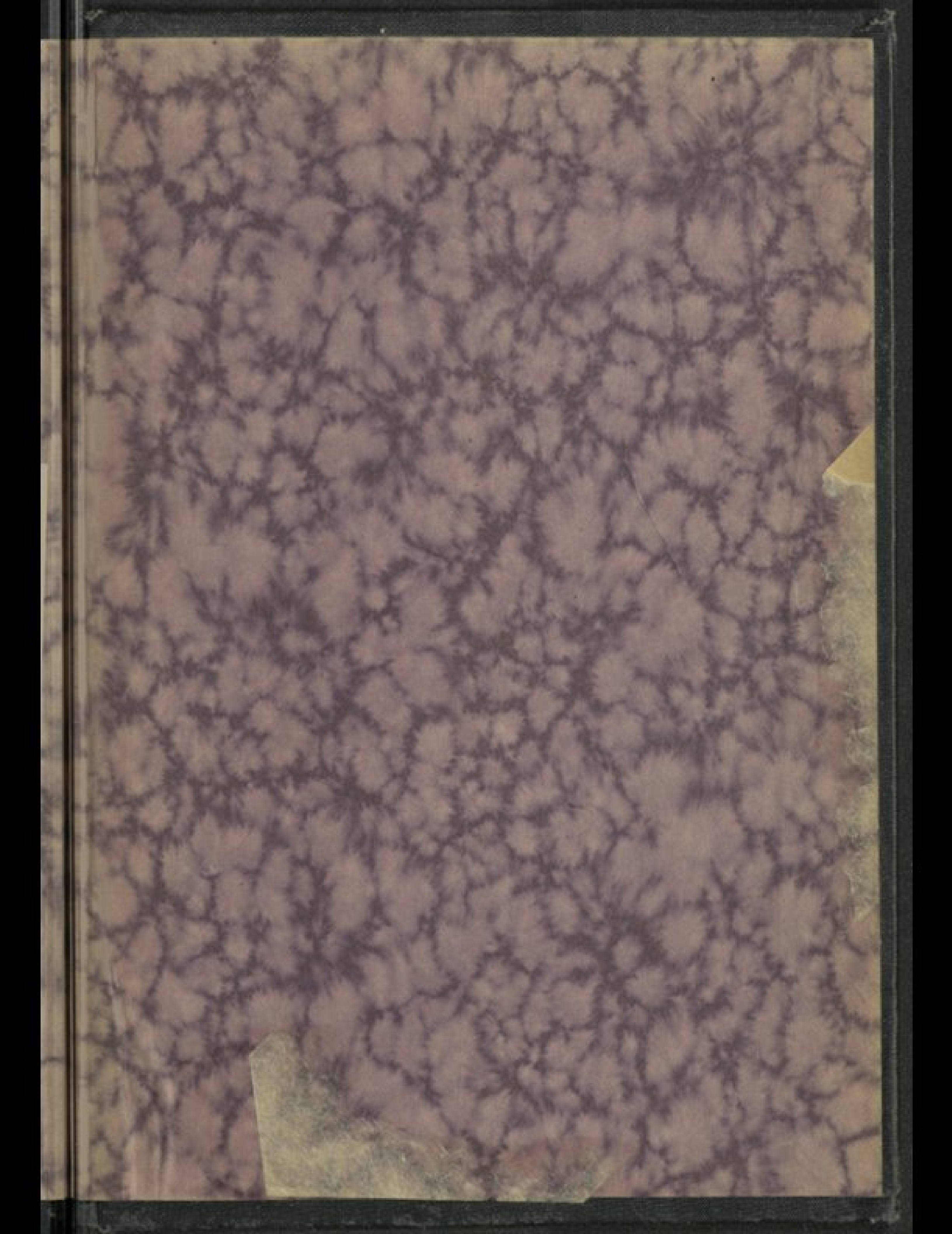
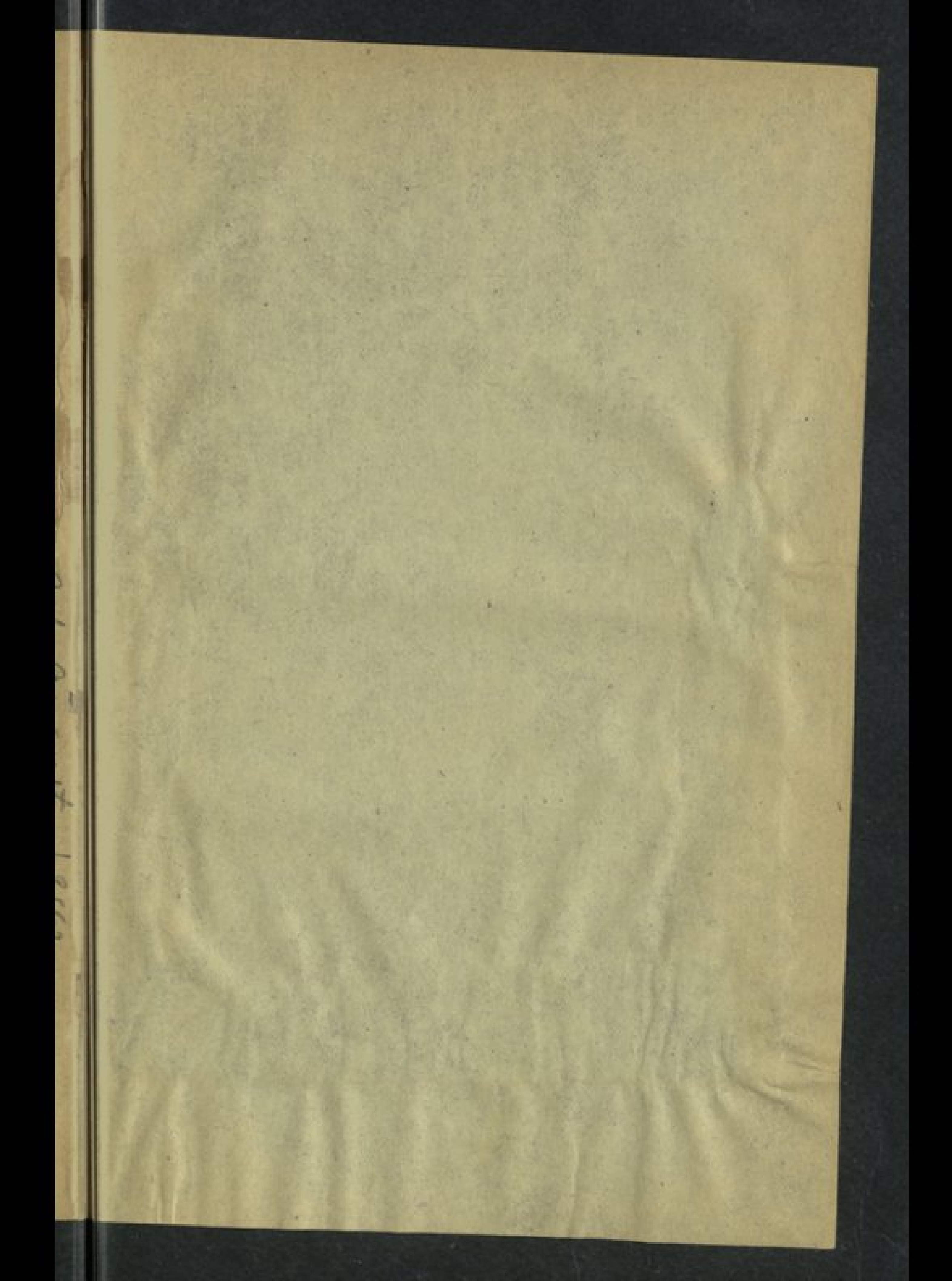
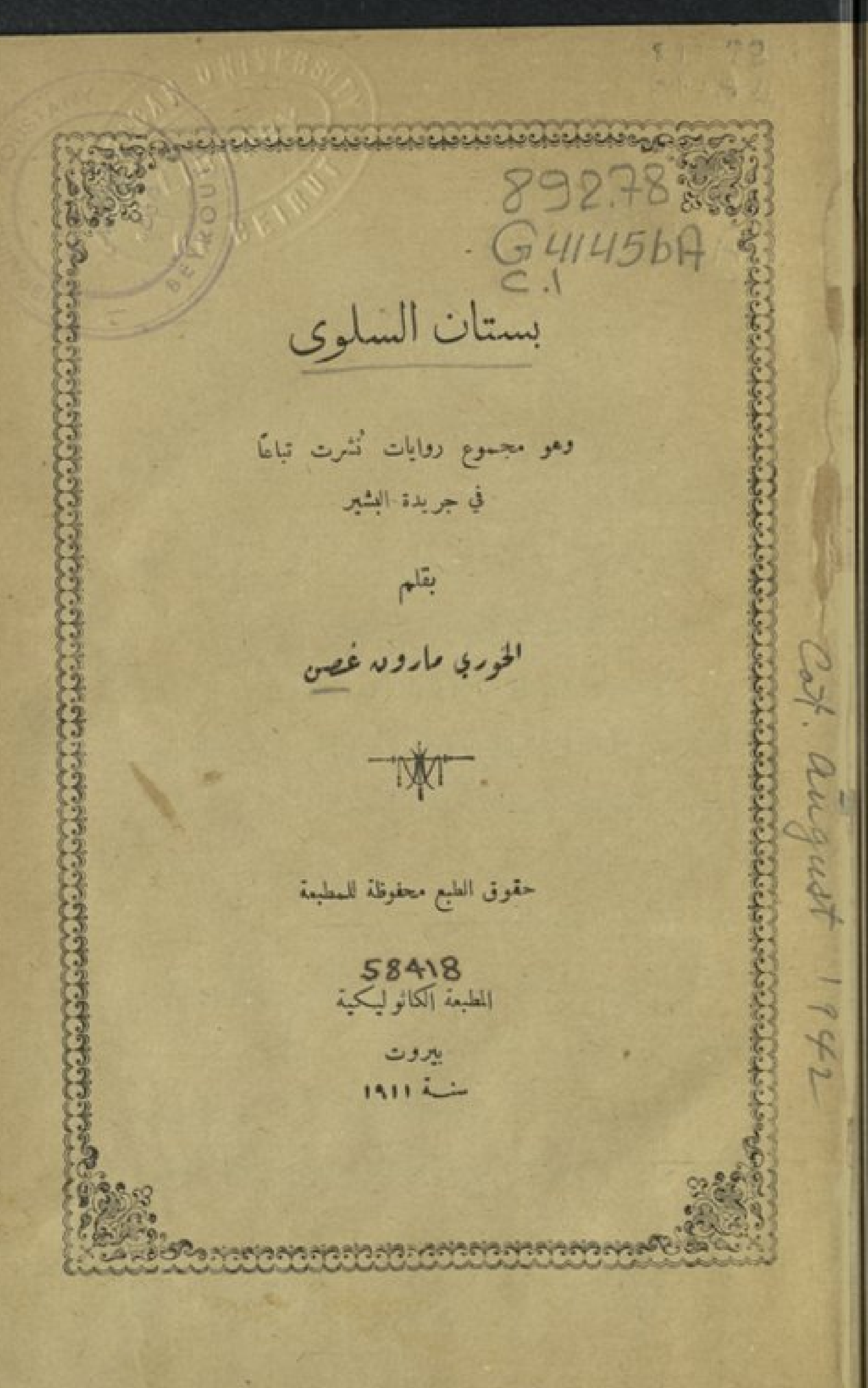










بستان السلوى

وهو مجموع روايات نُشرت تباعاً
في جريدة البشير

بقلم

الخوري مارون غصن

المطبعة الكاثوليكية

بيروت
سنة ١٩١١

بسم الله وبعونه

وبعدُ فلا يخفى أنَّ شبّان العصر قد ألفوا المطالعة ولا سيّما مطالعة كتب الروايات والقصص الموضوعة ابتغاء التفكّه والتسلية . وحبّذا تلك من عادةٍ لو لم يكن معظمُ هاتيك الروايات مبنيّاً على مواضيعَ تزعزع اركان الخصال الحميدة وتهجم على الصفات الكريمة هجمة الذئاب على الغنم وترسل على الاخلاق من الاوبئة الادبيَّة ما تُعدُّ أمراضُ الجسم بالقياس اليهِ صحّةً وعافية

ولمَّا كان من المتعذر صرف الناشئة عن مطالعة تلك القصص والأخبار بمجرّد التنبيه على ما وراءها من سوء المغبَّة وكان ترك الناشئة على تلك الاخطار إثماً فظيعاً في حقّ الاجتماع الانساني اصبح الاشتغال بنشر روايات فكاهيَّة

وقصصٍ ادبيَّة عليها جمال الاخلاق الفاضلة أنجح وسيلةٍ للردّ عن تلك المطالعات السيّئة العاقبة . فكم من مطالع انتهت بهِ مطالعتهُ إلى أن يعضّ الأنامل أسفاً ويقرع السنّ ندماً

فأنشأتُ وعرَّبتُ من الروايات والقصص الجامعة بين الفكاهة وتقوية الاخلاق الكريمة وتوطيد المبادي القويمة ما قد تكرَّمت جريدة البشير الغرَّاء بنشرهِ

وقد حَسُنَ جمع ذلك ونشرهُ كتاباً على حدة ليتفكَّه القرَّاء بمطالعتهِ . فدعوتهُ « بستان السلوى » ومن يتصفَّحهُ يجد الاسم موافقاً للمسمَّى

فعسى أن يُعرض منشؤو الروايات ومعرّبوها عن المضرّ منها رفقاً بالبلاد وشفقةً على الشبيبة ويُمسكوا الاقلام عن كتابة ما من شأنهِ أن يفتح نوافذ الفساد ويُغلق ابواب الصلاح ويختاروا لطلبِ الرزق سبيلاً غير ملومٍ ولا مضرّ وأن يُتحفوا العربيَّة برواياتٍ تكسبُ القلم بلاغةً والادب نضارةً

وتعزيزاً لما انا في صددهِ أروي لك بعض ما جاء في « نفحات الوردتين » وهو كتاب حاوٍ كلّ ما نشرت

المجلات والجرائد من مقالات الفاضلتين المرحومتين أنيسة وعفيفة كريمتي الشيخ سعيد الخوري الشرتوني . قالت المرحومة عفيفة :

« المطالعة سياحة العقول في ما دوَّنت الاقلام من أفكار الحكماء وقصائد الشعراء وأخبار القدماء واوصاف البلاد فيجوب القارىء الارضَ شرقا وغربًا وهو تحت سقف بيتهِ » الى أن تقول : « وإن طرق السفر قد تكونَ مخيفة ذات مخاطر اماً من قبل قطاع الطرقِ واللصوص واماً من الوحوش الضارية فلا غنى لمن يضطرُّ الى السير فيها أن يتخذ عُدَّةً ويستصحب رفاقاً اتّقاء لما ربما يعترضه من المخاطر . كذلك الكتب التي يندفع الى قراءتها قد تكون مكامن للصوص الاخلاق الحميدة فتثب عبارات منها بسلاح التمويه والزخرفة على عقل المطالع وتنهبُ من آدابه كما يثب اللصوص على المسافر وينهبون امتعته واثقاله وربما تخرج بعقل المطالع عما كان عليه من المبادىء الصالحة وتجرُّه الى مبادىء طالحة فيكون كالسائح الذي يفتك به قطاع الطريق »

فالى الكتب التي تحسن عليها الصحة ويهنأ العيش والى هذا « البستان » أدعو طلّاب الروايات من فتيان وفتيات ففيها من الازاهر الناضرة والثمار اللذيذة الفاخرة والمياه العذبة الصافية ما يدفع الهمّ ويُزيل الغمّ ويشرح الصدر ويروّض الطبع

واني لذو أمل أنّ الناشئة ترى من الاخطار ما يردّها عن قراءة تلك الروايات فتُعرض عنها كما يُعرض عن كأس العسل من علمَ أنّ فيهِ سمّاً وتُقبل على ما تجد فيه لذة سليمة ومنفعة ادبية

الخوري

مارون غصن



مكايد الرهبان

مكايد الرهبان

في احدى طرق مدينة من مدن جنوبي اسبانيـة بناية لصقت بجدرانها المسكنة وأغلق الزهد ابوابها ونوافذها فبدت بمظهر يكلم المارين انها دير للرهبان. وهنا كاني باعين تنفتح عند ذكر الرهبـان فتجول متنقلة من قبو النبيذ الى بيت المؤنـة الى هاتيك الانفاق والسراديب... اما المكان الذي يعز ان يهتدى اليه فهو مخبأ الاصفر والابيض ومستودع الالوف من الاوراق المالية!!!...

وكانت الساعة السابعة صباحاً والسماء منقبضة والجو مكفهر يتهدد الارض بالسيول

فلنحسب ايها القارئ الكريم ان قد لجأت ذلك الحين الى احدى الدور المحاذية وجلست الى النافـذة ترغب الاطلاع على مـا استبطن ذلك الدير وتشتاق الوقوف على مـا يجري فيه من الامور الغريبة التي اعتادها قطانه المكرة!!!

فافتح اذن عينيك وانشر اذنيك وتعقب كل حركة وتتبع كل خيال...

وبعد ساعة رُفع مزلاج البـاب فاجفلت وفتح المغلق فبان من خلال المصراعين قبعة على رأس راهب تأبط رزمة ليست بالصغيرة.

فما عسى يكون فيهما ؟. .أباخرة البحر المحيط؟. لا لعمري ! فمراكب
هذا البحر اكبر واعظم. أم هي آلة الخياطة ؟. : لا اكلا ! فهذه اصغر
حجماً !. .هي ولا ريب احدى تلك الآلات التي يحتال بها اولئك
الطغاة لانماء ثرواتهم الطائلة

ومهما يكن من شيء. فقد صلَّب الراهب واغلق الباب من خلفهِ
وخرج وتحت جبتهِ تلك الرزمة السرية

وكان هذا الراهب طويل القامة قوي البنية نضير الوجنتين طلق
المحيا. لابساً ثوباً قصيراً وفوقه رداء اقصر

وبعد خروجه بحين اخذت النوافذ تفتح والستائر تزاح .ثم ما
لبثت المدينة ان هبت من سباتها فارتفعت الجلبة وكثر اللغط واقبل
كل ذي عمل على عملهِ. بينما كان اتقياء المسيحيين يقصدون المعابد
خاشعين مصلين

قرعت الساعة الثامنة والراهب لم يرجع !. .فالى اين قد
ذهب؟:. .

وفي تلك الاثناء ظهر في منعطف الطريق شبح عُلم بعد قليل
انهُ عجوز اقبلت تمشي الهوينا وهي تسارق النظر ذات اليمين وذات
الشمال حتى بلغت الى الدير فجلست على عتبة الباب واسندت ظهرها
الى الحائط كانها تنتظر شخصاً

ثم نهضت وقد رأت الراهب رجع مطرقاً محتشماً وتلك الرزمة

لا تزال تحت ردائه. فلما وصل دنت منهُ وبعد سؤال وجواب دست اليه رسالة مجعدة فمد الراهب يده فانزاح الرداء فظهرت تلك الرزمة السرية !. فاذا هي. :سلة مونة... ولكن بدا من خلال غطائها شيء احمر قانٍ اشغل البال واقلق الخاطر. فحدق يا صاح لترى ما هذا الاحمر !

— ايه هو « بنادورا » ناضجة ..!!!..

ثم انصرفت المرأة ودخل الراهب الدير فساد السكون

ولما حلت الساعة الحادية عشرة تحركت نافذة من الدير وفتحت بكل تحرس فبدا منها رأس أجال عينيه في الطريق ولما رأى المارين غاب للحال. وبعد هنيهة بدا الرأس ثانيةً فنفض الطريق فرآها قفرة خالية فظهرت اذ ذاك يد طويلة الاصابع وربطت منديلاً باحد قضبان الشرفة ثم توارى الراس واليد وأغلقت النافذة

ولما اقبلت عساكر الليل وخفقت رايات الظلام سل البرق سيوفه واطلق الرعد اسوده فخفق قلب الجو وانفتحت افواه السماء. فاندفقت المياه فهبت الرياح تعترضها فاشتبك بينهما قتال وعراك فاضطربت الارض وخافت الناس واغلقت الشبابيك والابواب حاشا باب الدير فبقي مفتوحاً

ولما ازفت الساعة الحادية عشرة ليلاً وقف في منعرج الطريق عجلة نزل منها رجل رشيق القامة طويلها واقبل نحو الدير بخطوات

ثابتة ذات حذر. وقد التحف برداء طويل وتقلنس بقلنسوة واسعة انزلها الى عينيه فدخل الدير ولم يقرع واغلق الباب من ورائهِ بكل هدو وسكون

مضى على ما ذكرنا ثلاث ساعات كان السكون فيها سائدًا ولم يسمع في الطريق صوت ولا حركة . اما في داخل الدير فقد مثلت رواية ذات شان بطلها الاب انطون وصاحب دسائسها الضيف الملم ودونك ملخصها :

ان الرسالة التي دستها العجوز الى الاخ مبارك كانت كفاتحة للرواية وكانت معنونة باسم الاب انطون وقد كان هذا الراهب التقي جمع من اللطف والظرف وكرم المحتد ما جذب اليهِ القلوب وحببه الى الجميع

ولما كان يحظر على الرهبان قراءة ما يرد اليهم من الرسائل قبل اطلاع الرئيس عليها حمل الاب الصالح رسالته ودخل بها على الرئيس وبعد التحية قال لهُ هل لك يا ابِ ان تفض هذه الرسالة

وكان الرئيس من المشهورين ببسطة العلم وطول الباع في التحقيق وقد تسابقت اللغات الى نقل مؤلفاتهِ العديدة. فكان حين ذاك مكبًا على التأليف فخشي شرود الافكار التي كان يستودعها بطون تلك الطروس فقال للاب انطون اقرأها انت يا أبي على مسمعي فشق الاب الغلاف وقرأ ما حرفيته :

« رسالة نفس ضالة تلتمس الرجوع الى رحمة الله »

فهتف الرئيس بصوت مازجتهُ الغيرة الصادقة وقال: من كل بد!. فسهل لها الطريق يا ابي. ولما رأى ان الرسالة ضافية الذيول ارخى القلم من اناملهِ واستوى جالساً يسمع. فتابع الاب انطون القراءة:

« السلام عليك ايها الاب الجليل ورحمة الله وبركاته »

فقاطعهُ الرئيس منذهلاً وقال: أعد يا أبي

فاعاد الاب وقرأ: « السلام عليك ايها الاب الجليل ورحمة الله وبركاته »

فهتف الرئيس أمين! أمين!.. ثم قال كمل يا ابِ لنرى ما نتيجة هذا السلام. فواصل الاب القراءة:

« نفس مسكينة ضلت سواء السبيل فاتت تلتجيء اليك متوسلة بما لك من الغيرة على خلاص النفوس وهي على ثقة من انك لا تخيب طلبها. هي نعمة الله مست قلبي فاسرعت لاعترف بآثمي واغسل نفسي بدموع توبة نصوح. لكني ارى ان دون ذلك اخطاراً واهوالاً. فقد قضى عليَّ سوء طالعي ان انخرطت في سلك الشيعة الماسونية وها قد مرَّ بي ثلاثون سنة وانا عشير الفئة وسمير الكفر والضلال فاذا وقفوا على اعترافي او خامرهم ريب في اني بحت باسرارهم تعقبتني الشفار وترصدتني العيون فقتلت شر قتلة. ولهذا

فاني بعد اعمال الفكرة واستشارة الله رأيت ان اتدبر الامر على هذا المنوال واني احسب الاب الفاضل يستصوبه فليس لي الخلاص بسواه فاسألك اذن أبتِ ان تدع باب الدير مفتوحاً هذه الليلة وان تطفأ مصابيح الباب والسلم كالعادة. وارجوك ايضاً ان تترك باب غرفتك المشرف على السلم مفتوحاً نصف فتحة وتنتظرني هناك على نصف ضوء. فيسعني اذ ذاك ايها الاب الغيور ان اسرع اليك زهاء الساعة الحادية عشرة فانطرح على قدميك مقرّاً بجرائمي وذنوبي. وعلى غير هذه الصورة لا اكون في مأمن من افتضاح امري. ولاسيما وانا محاط بالخانة والجواسيس فاستحلفك ثانية باحشاء السيد المسيح وعظيم محبته للخطأة ان تكتم هذا عن الجميع ولا تزدل بغية تائه يهيم في دياجي الضلال والشقاء وهو يستجير بمن يهديه الى محجة الهدى فيرجع الى حظيرة الخلاص

فاذا رأيت اجابة سؤلي وما اخالك غير مجيب فاربط قبل الظهر الى حديد الشرفة منديلاً ابيض فيكون علامة منك تدلني انك لم ترفض تضرعَ خاطىء مسكين »

ولما اتم الاب قراءة الرسالة قال للرئيس: قد انتهيت يا ابِ ولكن ليس في الرسالة توقيع

فهز الرئيس رأسه وقال لا غروَ في ذلك فاني ارى اعين الشيطان تبص خلال هذه السطور أجل ان وراء هذه الرسالة شركاً

منصوباً. فان صاحب التوبة الصادقة لا يتذرع باحجال الكلام وتفنن الاساليب بل يتوسل بالتنهد والدموع ليس غير. فخلاصة الكلام يا أبي ان هذه الرسالة ليست بنقية الجيب وانما هي نفثات مخادع ماكر

فاجاب الاب مندهلاً: ومن عسى هذا يكون

— لعله خبيث مكار ينوي ايصال الضرر اليك

فزاد انذهال الاب وفتح عينين ملأتهما السذاجة والصفاء وهتف بصوتٍ كئيب:

أو تذكر احداً يا أبتِ قد آلمتهُ واذنبت اليهِ ؟

— نعم واذكر انك في كل يوم تسيء الى مملكة الشيطان بما تجر اليها من الخراب والدمار. او غاب عنك يا ابتِ ان بجاذب كل نفس تاصها من شباك الشيطان ظفراً بهِ ونصراً. فعلى كل من حدثتهُ النفس باحباط مساعي الضلال ان يستعد لصدمات ذويه... ولكن يبين لي انك شاك في ان الرسالة هي لاحد اعوانهِ

— لكن صاحبها يعلن صريحاً انهُ يبغي الاعتراف. فلست ارى فيها ما يدعو الى الشك والخوف

فاجاب الرئيس: أو تتوقع ان يقول لك: اني كلب الى تعبب دمك. او وددت ان امزق لحمانك تمزيقاً؟.. ألا اذكر يا أبي ان عيون المدينة شاخصة اليك ناظرة الى «جمعية الفعلة» التي انشأتها وآذانها

سامعة مواعظك المؤثرة وهي عالمة بما لك من الغيرة على خلاص النفوس وما تأتيه من الخير في زيارة السجون وعيادة المرضى وتعهد الملاجي والمياتم . وها قد احاط بك الخطأة التائبون وراحت الصحف الماسونية تلهج بذكرك . واحسبك لم تنسَ انك قد سمعت من يومين اعتراف ذاك الماسوني الشهير فمات على ذراعك خاشعاً نادماً وقد كان من ذوي الدرجات العليا . فسبحان من تعالت احكامه وتنازلت رحمته الى زيارته في الساعة الحادية عشرة . أو تنتظر الان ولم يكد يمضي على الحادث يومان ان يأتيك ماسوني آخر ويكون تائباً وقد رأينا من كلامه انهُ عارف بحالة ديرنا وان غرفتك حذاء الدرج الى غير ما ذكر في رسالتهِ . وهو يتظاهر ان نعمة الله مست قلبه فاتى يطلب الرجوع اليهِ بغاية الخشوع ومنتهى الخضوع ؟ وفي اي وقت ؟ في نصف الليل ! .. ويزيد ايضاً ان تكون الابواب مفتوحة في وجههِ وغرفتك نصف مضاءة ليخلو لهُ الجو وأنت ترى مع كل ذلك أنهُ ملهم من الروح القدس ! ذلك يا أبتِ ما لا يسعني ادراكه ! ! . . .

فعجب الاب انطون لكلام الرئيس فوقف يسمع لهُ مطرقاً خاشعاً حتى أتم فاجابه بصوت مؤثر : واذا صح يا أبي ان الامر حقيقي اكيد

فوقف الرئيس والقى يديه على كتفي الاب انطون وقال لهُ بكل محبة وتودد : واذا صح شؤمي ولم يكن ذلك الا كذباً واحتيالاً

وأن هذه النفس التائبة تبغي لك شراً ؟..

فهتف الراهب الشاب قائلاً: وما عليَّ أن اضحي بنفسي في سبيل خلاص النفوس

فاجاب الرئيس: اماً انت فلا بأس عليك واما الرهبانية فعليها حرج وبؤوس. ولا ارتاب ان لا اشهى الى قلب الاب انطون من ميتة تنقله تواً الى النعيم. ولكن أتكون تلك مشيئة الله ؟.. لعمري ان في هذا لشكاً. وانه ليخلق بالراهب ان يضحي بحياته ولو في نضارتها لكن الافضل والانفع أن يحيا طويلاً ويجاهد الجهاد الحسن ازاء الكفر والضلال حتى يجود بروحهِ في ساحة القتال!. الا اذكر يا أبتِ ان الحصاد كثير والفعلة قليلون ولا تنسَ قول المخلص: كونوا حكماء كالحيات وودعاء كالحمام

فاجاب الاب انطون: ان كلامك يا أبتِ الرئيس لهو عين الصواب. لكنني ارى ان التغرير بالنفس في سبيل خلاص النفوس عمل غير ملوم. وعندي أن الغلط في تجاوز حدود المحبة والانخداع بكلمات مزوّقة خير من القطع بحكم مبني على الظن والريبة

فاجاب الرئيس قائلاً: لا اماريك في ذلك ولكن من الحكمة ان تفرز امراً من امر. فاذا لم يكن من وراء السعي خطر ظاهر فسلّم. واما في امثال ظروف كهذه ففكر

فالقى الاب مقاليد الامر في يد رئيسهِ وقال: ليس لي ان اعترض

على احكامك يا ابي فمرني الان كيف اتصرف

فقال الرئيس رأيي ان تنبذ هذه المسألة ظهرياً وتنام هذا المساء بكل طمأنينة كأن لم يكن شيء. فاني اراك بعوز الى الراحة

فحنا الراهب المطيع راسه وقال اني اطيع اشارتك وألقي الامر في يد الله ليدبّر ما يشاء.

فاجاب الرئيس: وهو حسبنا ونعم الوكيل. ثم حنا الاب رأسه ثانيةً وخرج

اما الرئيس فبقي واقفاً يتأمل ويده على تفاحة الباب. ثم رجع ليجلس وهو يقولَ في نفسهِ. حقاً ان هذا الاب الفاضل نقي القلب خالص الطوية! لكن كيف تصل بهِ السذاجة الى حد ان لا يرى معها في هذه الرسالة خداعاً ومكراً!

***

أمّا الاب انطون فنزل الى معبد صغير يقضي فيهِ الرهبان واجباتهم الروحية. فجثا هناك امام الصليب واستغرق في الصلاة

وقد كان هذا الاب الفاضل من خيرة النفوس التي يكلأُها الله في حدائق الرهبانيات فراح يقول في نفسهِ: لقد لججت والححت في استجابة طلب صاحب الرسالة. وجعل يلوم نفسه معتقداً ان قد فرط منهُ ما شوَّه وجه القانون وانهُ لم يستسلم لحكم الرئيس وهو نائب الله في ديره وقد حباه الله بصيرة نفّاذة وزانه بقداسة سامية. وارتدّ

يعزو ما بدا منهُ من الغيرة الى عوامل الكبرياء والتصلب . فاكبَّ على الارض يتوسّل الى الله ان لا يجعل ما قد اقترفهُ الان حاجزاً يحجز نعم الله عن هذه النفس صادقة كانت او ماكرة

وفيما كان هذا الاب الفاضل غائصاً في التأمل والتضرع كان الرئيس يحاول الرجوع الى الكتابة فلا يستطيع . وجلس يستدعي الافكار التي كان عامداً ان يرقشها . فكان الطرس الذي امامه يذكره بتلك الرسالة فيعود يعجب لالحاح الاب انطون غير المألوف فتولاه القلق لانهُ كان يعلم حق العلم ان ذاك الراهب الفاضل لا يسعى الا ابتغاء مجد الله

فارخى القلم وهتف من يعلم اذا كان الله لم يلهم هذا الاب الورع ان يُلحّ في الطلب ؟ ؟ . . نعم ان في الرسالة ما يدعو الى الحذر ولكن ما يدريك انها ليست بصادقة . ولعل العناية اتخذت الاب انطون الة لهداية تلك النفس الضالة . ومن يثبت لي اني لم اكن عقبة في طريق مقاصد الله وانّ عجلتي وعنادي يمنعان خلاص نفس خالدة ؟ . .

ثم هتف : الهي ! لا تسمح ان يكون ذلك ! ويحاً لي فقد اجترأت فجزمت في هذا الامر قبل استشارة روحك القدوس . واراني قد انقدت لعامل الفتور فرأيت في حميَّة الغير تهوراً وشططاً . رباه ! ان الناس يحسبوني حكيماً ويعدّونك جاهلاً ! ! ! . . . حنانيك يا رب

اشفق عليّ اللهمّ وارحمني . ارأف بي بحق ابنك الوحيد ومحبتك لخير النفوس . هبني روح المعرفة وانرني بشعاع حكمتك

فنهض وهو لايعي واخذ يجول في غرفتهِ ثم اتجه نحو المعبد ودخل

اما الاب انطون وقد كان مستغرقاً في الصلاة فلم ينتبه للرئيس وقد دخل همساً وجثا في احدى الزوايا يعيد فعل الاعتراف : « انا اعترف لله الاب الضابط الكل الخ » ثم جعل يتنهد في اعماق قلبهِ ويقول : اللهمّ بحق استحقاقات عبدك الجاثي هناك امامك ارشدني وانرني واذا كنت قاومتُ مقاصدك الالهية على غير معرفة فتغمّد ذنبي بستر عفوك انت ارحم الراحمين

وقد لبث هذان التقيان في الصلاة زهاء نصف ساعة فكان كلٌ يشكو نفسه بما لم يذنب فيهِ ويستكشف مشيئة الله طالباً منهُ العون والنور . لكن الارادة الربانية لم تستتر عنهما حتى ظهرت

فنهض الاب انطون واذا به يلقى الرئيس وجهاً لوجهٍ فتبعهُ هذا الى المشى وهمس اليهِ ان اربط المنديل الى حديد الشرفة فلم يفُت الوقت بعد . فنظر الاب اليهِ نظرة عجب وفرح فاتبع الرئيس قائلاً : نعم يسعك يا ابِ ان تفعل . لكني لست اضطرك الى ذلك بل اترك لك الخيار فافعل ما شئت واقدم ان كنت لا تخاف

فهتف الاب الغيور وقال : الرب نوري فممن اخاف ! الرب حصني فممن افزع ! . .

فقال الرئيس: نعم يا أبِ ذلك مما لا ريب فيهِ: ممن افزع!..

وكانت الساعة العاشرة فقرع الاخ مبارك الجرس يدعو الرهبان الى الراحة

ورأى الرئيس ان يحتاط للامر فاستدعى الاخ المذكور وطلب اليهِ ان يُبقي الباب المشرف على السلّم مفتوحاً وان يُضعف انوار المصابيح في الدهليز والسلم ثم يمضي الى المعبد فينتظر هناك مصلياً الى ان ينادى. واستدعى راهباً ثانياً وسألهُ ان يبيت ساهراً ويسرع عند اقل حركة مفاجئة. وذهب هو الى المصلى ينتظر ما يكون

وكانت غرفة الاب انطونُ ملاصقة للمصلى وكلا المحلين يُطل على راس السلم. فكان يسهل على المنصت ان يعلم ما يجري

فاخذ الاب انطون يتمشى في غرفتهِ وهو يتلو السبحة بهدو وسكون

فلما جاءت الساعة الحادية عشرة سُمع في السلم وطء رجل يصعد مسرعاً فهمس الاب الرئيس الى الاخ مبارك أن أغلق باب المصلى بسكينة واجثُ للصلاة

واسرع الاب انطون وخفف نور مصباحه وجلس على كرسي ازاء المسجد فلم يكن الا لحظة حتى رأى رجلاً طويلاً دخل واغلق الباب

***

مضى عشر دقائق كانت كأنها اعوام. وكان الجميع يتوقعون ما يكون واذا بطلق نار قد دوى في غرفة الاب انطون فابتدر الرئيسُ الباب ودفعهُ دفعاً وصرخ ايها الاب انطون! ايها الاب انطون! واسرع الراهب الآخر ايضاً وتعجل الاخ مبارك رفع الاضواء. . . ففتح الاب انطون باب غرفته نصف فتحة وكان وجههُ اصفر جداً لكنهُ كان ساكناً هادئاً وقال للرئيس بصوت منخفض لا تجزع يا ابي ولا تهلع. ارجع ولا تخف فهتف الرئيس وأنَّى يسعني ان ارجع. وهجم يحاول فتح الباب فاخذه الاب نطون بذراعهِ وقال لهُ بصوت موثر يخشع الجماد: ابتِ استحلفك بدم المسيح ان ترجع ولا تحول دون عمل الله. عُدْ ودعني أكمل

فاثرت كلماته في الرئيس اي تأثير حتى لم يرَ بدّاً من الرجوع الى المصلى وهناك وقف والراهبين وقد ملأ الجزع صدورهم فجثوا يصلون خاشعين

*

مضى على هذه الحالة ساعة كان الصمت فيها سائداً والقلق يتنازع قلوب الرهبان حتى ضاق صدر الرئيس فلم يعد يستطيع صبراً فقصد الغرفة ووقف الى جانب الباب فسمع همس حديث يقاطعهُ نحيب وشهيق

***

لما دخل الزائر على الاب انطون رأى المزور الاضطراب في وجه الزائر ولاسيما وقد اغلق الباب بالمفتاح. ثم جثا على المسجد واخذ يتلو فعل الاعتراف بصوت منخفض فرفع الاب يده وباركهُ وبين هو يصلي الصلاة المألوفة وهي «ليكن الرب في قلبك وشفتيك لتعترف حسناً بجميع خطاياك» اذا بالغريب مدَّ يده اسرع من البرق واخذ الكاهن المعرّف بخناقهِ واخرج من تحت ردائهِ غدارة وهمس في اذن الراهب وقال: حذار ان تنبس ببنت شفة

فاضطرب المسكين اي اضطراب ونالهُ ذعر شديد حتى لم يعد يقوى على تحريك لسانه فرفع يديه المرتعشتين كأنهُ يطلب ان يفرج عنهُ

فانتهره الغريب بصوت اجش وقال: مكانك! لا تتحرك! ثم هزَّه وجذبه اليهِ حتى مسَّت الغدارة جبهته. وقال: اجبني ؟.. اين الاوراق التي اعطاكها ح.. منذ يومين ؟.. ففتح الاب شفتيه ليجيب فافرج عنهُ الفاتك قليلاً. فاجاب المسكين بصوت خنقهُ الخوف وقال: لم يعطني احد اوراقاً. فانتهره الظلوم وضرب براسه الحائط وقال ساخطاً. يا لك كذاباً منافقاً !... ان ح. اعطاك قبل موتهِ رزمة اوراق فاين هي ؟. فاجاب الاب وقد ثابت اليهِ روحه: أَيدٌ ما تقول

فزاد هذا الجواب في هياج الفاتك فزمجر ودمدم وسدّد فوهة الغدارة الى جبهة الراهب وقال: اليَّ الان بجميع ما تحت يدك من الاوراق والّا !!!...

فاجاب الاب انطون وقد تشددت عزيمته: لا اوراق في يدي ولنفرض ان عندي اوراقاً فلن اسلمها اليك

فتميز السفاك غيظاً فاخذ الكاهن بناصيته وجذبهُ بها الى الارض واسرع فاستلّ خنجراً مرهفاً وكاد يغمده بين كتفيه لولا ان المسكين هتف وقال: لحظة! امهلني لحظة!. فتوقف الشقي وهو يحسب ان الكاهن قد خاف الموت فآثر ان يسلمهُ الاوراق فقام عنهُ وارخى فريسته

فوقف الاب انطون وقال متوسّلاً: بحق الهك والهي امهلني عشر دقائق!. عشر دقائق ليس غير لاندم فيها على خطاياي واتضرع الى الله والى مريم العذراء التي هي امي وامك ايضاً انت يا ايها التعيس!!! وكان كلامه مملوءاً من العزيمة والسلطان. فارتد الشقي الى الوراء ووقف مبهوتاً كأنّ ذكر البتول ذكّره اموراً مضت فهتف حزيناً مضطرباً وقال: أو هي ايضاً امي!!...

فاجابه الاب انطون وقد لحظ شديد تأثره. نعم! هي امك!. وام المسيح الذي سيدينك على هذه الجريمة الفظيعة التي اتيت تقترفها!!!...

فاخذ الشقي ذعرٌ شديد فدفع الابَ نحو المسجد قائلاً . صلِّ ما شئت . ولكن حذاريك ان تأتي بحركة او تتلفظ بحرف ! . . .

فجثا الاب المسكين واخذ الصليب بيديه فضمه الى صدره بايمان اهل الصلاح ورجائهم

اما ما حدث بعد ذلك فهو سر لا يعلمهُ الا الله . وكل ما نعلم ان الراهب جثا وقدم حياته كفَّارة عمن اتى يضحي بها

وحينئذٍ حدث ما لم يكن في الحسبان . . فان ذاك الهياج الهائل انقلب سكوناً وهدوًا فكان اشبه بعاصفة سكنت بسكون الريح . واخذت عينا الظلوم تنفتحان للنور فرأى من اقبال ذاك المسكين على لقاء المنون امرًا عجيباً . فوقف يتأملهُ وهو يصلي خاشعاً ساكتاً . . . فاثر المشهد في قلبهِ القاسي وفعل فيهِ فعل النار بالشمع فلانت صلابته واخذتهُ الشفقة وتولاه الحنو فتنهد الصعداء واصعد الزفرات وسالت الدموع من عينهِ . . .

اما الراهب فنهض ممتقعاً مستسلماً لله وهو يحسب ان قد انتهت حياته

فدنا الغريب منهُ وبدلاً من ان ينهال عليهِ بالطعن رمى بالخنجر والغدّارة وستر وجههُ بكلتا يديه وهتف بصوت خنقتهُ العبرات وقال : عفوًا ابتِ صفحاً !!! . . .

لكنَّ الغدارة ما مسّت الارض حتى انطلقت النار منها فكان

لها ذاك الدوي الهائل الذي دفع الرئيس الى الباب . .

فبهت الاب انطون لما كان واندهل اذ رأى قاتله منطرحاً على قدميه يتجهد ويستغيث وهو يقول: الرحمة يا ابي الرحمة . . بحق المسيح لا تفضحني . حنانيك سيدي فان لي عشرة بنين !! . .

فتأثر الاب الصالح اي تأثر وادرك عظيم رحمة الله فهتف قائلاً: لا تخشَ يا أخا قلبي . سكن روعك فانت في ظل الامان وانا ما كنت لاخذالك . فخفض جأشك ولا يأخذك الروع

ثم اخذه بيده فانقاد السفاك صاغراً وجثا على المسجد فبقي زمناً رازحاً تحت احمال الانفعال والتأثر

وفي ذاك الحين فتح الاب انطون الباب ليرجو الرئيس ان يتنحى معتزلاً ثم عاد ومد يده وهو لا يعي ليقوي نور السراج لكنهُ ذكر السر الذي يودّ ذاك المسكين ان يستتر بهِ فعاد واضعف النورّ فلحظ الفاتك حنان ذاك الاب الصالح فوقف واعاد رفع الفتيلة وحسر عن راسه وقال بمنتهى التأثر: تفرّس فيّ يا أبي وانظر الى وجه يشبه وجه القاتل

وكان قد اخذ الانفعال منهُ مأخذاً عظيماً فلم يتمالك ان يبكي فتركهُ الاب وشأنه ووقف ينظر اليهِ . . ثم انطرح على عنقه يقبلهُ واخذ يشجعهُ ويفرغ في قلبه كلمات التعزية . فاستأنس المسكين

بهِ واخذ يقصّ عليهِ قصته ويسرد لهُ تاريخ حياتهِ. فلم يكتمهُ شيئاً من تلك المكايد الجهنمية التي نصبها لهُ المحفل الماسوني وقد دعاهم الى ذلك موت احد روءساء محافلهم مسيحياً على ذراع الاب انطون وقد ظنوا ان المحتضر كشف لهُ عن مساعيهم الاثيمة التي سعوها الى ذلك اليوم. فعقدوا النية على قتله وان يدفنوا معهُ تلك الاسرار التي اطلع عليها

اما الاوراق التي طلب تسليمها اليهِ فلم يكن هنالك اوراق وانما هي حيلة تذرّع بها لاكتشاف الحقيقة واما الغدارة فلم يرد بها الّا الارهاب والتهويل والدفاع عن النفس اذ ان المدية اعجل للقتل واستر. وقد كان في عزمهِ ان يسرع الى العجلة بعد قضاء الامر فيركبها وينجو بنفسهِ

اما ما ساقه الى الاقدام على هذه الجريمة بنفسهِ فهو بغضه الشديد لذلك الدير لان ابنته البكر كانت استشارت احد الرهبان في امرها فاشار عليها ان تعتنق السيرة الرهبانية ففعلت ولم يجدِ اجتهاد والدها شيئاً في ردها عن الترهب

واما اطلاعه على احوال الدير ومواقع الغرف وعدد الاباء فيهِ الى سائر ما هنالك فقد عرفهُ بواسطة احد الماسونيين وكان هذا الماكر يتظاهر بمحبتهِ للدير وكان مشتركاً في ثلاث اخويات انشأها ويديرها رهبان الدير انفسهم ولم يكن المنافق يتراخى عن تناول

الاسرار المقدسة حتى من يد الاب انطون عينه !.. فملأ هذا الكشف الاخير قلب الاب مرارة كانت اشد مما سببت له تلك الجريمة . وان تلك الرسالة التي القت الريب في قلب الرئيس كانت من نفثات ذلك المرائي السافل !...

وقد حاول هذا المسكين ان يعبر عن اسباب ارعوائه فلم يقوَ . وجلّ ما استطاع قوله ان قلبه انسحق اذ رأى الراهب الشاب جاثياً يتأهب للموت ولم يفتح فمه للشكوى ولا نبس بكلمة شتيمة او تذمر . وقد خُيل اليه ان ابنته الحبيبة جاثية امام المذبح تصلي بحرارة من اجل اهتدائه .. ثم هتف وقد ستر وجههُ بيديه وانهملت الدموع من عينيه وقال: هي هي انقذتني بصلاتها !... وقد كنت واأسفي اهزأ بها فيما سلف اما الان فاني اقر بخطاي !...

فاقترص الاب انطون هذه الفرصة لينعش في قلب الاثيم شعوراً خلاصياً . فقال له : ان ابتهالات ابنتك العزيزة لا تستجاب ان لم تغسل نفسك في حياض التوبة . ثم اخذ كاهن الرب يوقظ ايمان التائب المسكين فاصعده على سلم الحاسات الطبيعية الى ذروة الشعور الفائق الطبيعة

فطلب الى الاب ان يسمع له اعترافه العام واعانه الاب انطون على محاسبة ضميره

وبعد ساعتين لسعيهِ الاثيم استعاد المضطرب سكون النفس

وسلامها تحت يد الضحية البارة

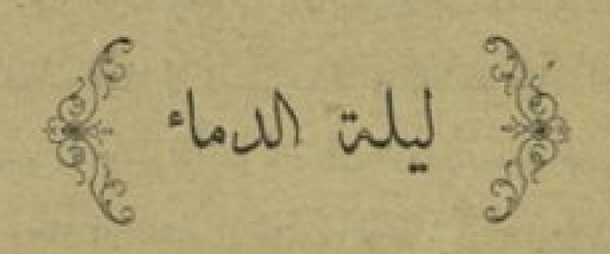
ثم سأله الاب قائلاً: الى اي وسيلة تلجأ للنجاة من ترصد المحافل ؟ فلم يقلق الرجل للجواب بل قال: اما الان فان العجلة التي اتت بي تحملني الى مكان امين. وبعد ذلك اهجر هذه المدينة بتاتاً لكنَّ الامر الذي اسألك قضاءه هو ان تعتزل الظهور فتلزم الدير زهاء اسبوع

فوعده الاب انطون بذلك ورافقهُ الى اسفل السلم فركب الرجل العجلة وسار . فوقف الاب ينظر اليها حتى توارت في الظلام

*

ولربَّ سائل يسأل ؟ من كان الرجل؟ . — لا نعلم فان الاب انطون عينه لم يعرفهُ ولم يعد يسمع عنهُ منذ ذاك اليوم خبراً

. ولكن بعد ثلاثة اشهر وصلهُ رزمة مرسلة من مدينة ليفربول فوجد فيها وساماً ورقاً. وعلى الوسام شارات الماسونية وقد عُقد بنسيج حرير سمنجوني غالي الثمن. وهذا النسيج لا يزال الى يومنا معقوداً الى مفتاح بيت الجسد في معبد الدير. اما الرق فقد محي ما كان عليهِ من الاسماء والتواريخ. واما نقوش الخواتم والطوابع فبقيت صحيحة سالمة. وهي لا تبرح الى الان امام عيني من لخصنا عنهُ هذه الحادثة



ليلة الدماء

ليلة الدماء

كان لخمّارٍ حانــة منفردة في ضواحي احدى المدن فاتفق ذات يوم ان لم يغشهـا احد فجلس الخمّار وابناؤه يخضخضون الزجاجات في أقصى الحانة . فأقبل بقّار عند الاصيل ودخل فلم يرَ احداً فصاح : أما في الدار من ديّار ؟ . فهتف الخمّار من داخل وقد عرف القـادم : اهلًا بيعقوب . واقبل يرحب بهِ كعادة الخمّارين ويؤهـل الى ان قال : لا ريب ان قـد احتدم عليك الحرّ في هذا النهار الومـد . فاجاب البقّار : لو كان الومد وحدهُ لهـان الخطب ولكنهُ حر وغبار فقد ابتلعتُ منهُ ما لو فرش في ارض هذه الحانة لكان لهـا بساطاً . فقال الخمّار مازحاً : آه لو انَّ لنا شذور ذهبٍ عداد . مـا ابتلعت من الذرات ! مـا قولك ؟ . . الستَ على رأيي ؟ . . فما تشاء ان تشرب على ذكر ذلك ؟ أخمرًا ام عرقًا

فاجاب المسافر عليَّ بكاس عرقٍ ينظف حلقومي

واذ كان الخمّار يسكب جلس يعقوب على كرسي واسند عصاه الى فخذه واخرج من جيبـهِ منديلًا وجعل يمسح العرق عن وجههِ . ثم كشف عن ساعديهِ وهو يتأفف قائلًا : بعداً للغبار وسحقاً بـل أفٍ للمدن وطرقها . فلقريتي بوحشتها وصخورها احب اليَّ من

المدن بضوضائها وغبارها .. ثم أبرقت أسرّته فقال: «لكنَّ السوق كانت رائجة . بارك الله في المدن ففيها السعي والعمل ». ثم ضرب جيبهُ وهتف. اربعة آلاف فرنك في جيب يعقوب ! .. اربع ورقات كل واحدة منها بالف .. فلقد رافقني التوفيق في ما بعت من البقر فربحت في كل زوج ٢٠٠ فرنك. فلو كانت سائر الايام كهذا اليوم لاستغنيت عن السعي والعمل وعشتُ في غبطة وهناء

فهتف الحمَّار منبهتاً : اذن ... معك ؟ ..

– اربع ورقات كل واحدة منها بالف فرنك .

فمدَّ الحمَّار صوتهُ قائلاً : بأ... ف ؟

– نعم بألف فرنك

– او لست تخشى عدواً ومعك ما معك ؟

فاجاب يعقوب ضاحكاً : أمثلي يخشى ؟ ... كأنك لا ترى هذه العصا ... خذ رزها ... فضلًا عن انّ في هذا الصدر ايماناً . هاك ... انظر

ثم كشف عن صدره فبانت مسربة كأنها غابة وجذب خيطاً قد سوّده العرق ... فبدت إيقونتان علاهما الصدأ فلثمهما باحترام وقال : ترى هاتين الايقونتين ؟ .. احداهما تمثل القديس مباركاً شفيع المسافرين والثانية القديس انطون محامي المساكين. فحسبي بهما درعاً في وجه كل معاند اذا امتطيت غارب

الليل وجبت القفار في رفقة الذئاب والضباع اذ اني واثق أن لا يمسني أذى لا ينالني مكروه

فقهقه الحمار قائلاً : أيصدق انَّ مثلك ذكياً يكسب ٢٠٠ فرنك في بيع زوج بقر يعتقد مثل هذه الخزعبلات !

فشقَّ هذا الكلام على يعقوب فاجاب ممتعضاً : ذلك هو معتقدي ولك معتقدك . فهزَّ الحمار راسهُ وقال : امَّا انا فلا دين لي ولا معتقد . . .

فاجاب يعقوب : انت معتقد ان لا معتقد لك فانت اذن معتقد شيئاً . . . ثم مسد شاربيهِ وتعبب الشراب وهتف : حبذا شراب يزيل الهم ويبعث الهمم . فلقد نهكني التعب والحرّ وكاد يخنقني الغبار

امَّا الخمار وقد كان يشتاق العود الى ما همهُ فقال : أَو تحسب يا صاح انَّ هاتين النحاستين اللتين تدعوهما ايقونتين . . .

فقاطعهُ يعقوب مغضباً وقال : اذا بدا لك يا صاح أن تمزح فلا بأس . ولكن حذارِ حذارِ أن تسخر من الدين فلست أُطيق على ذلك صبرًا

فغضَّ الخمار من صوتهِ وكظم غيظهُ وغيَّر الحديث وقال : لك ما تشاء . فهل لك الآن ان تشرب كاساً ثانية ؟

— لا بأس فانَّ طلبك لا يُردّ . ثم عاد الى ذكر ما قاساه من

حر النهار وغباره . . وبعد ربع ساعة كانت الشمس قد توارت في الافق وارخى الليل سدولهُ ولم يكن يسمع في تلك الفيفاء الا وطء اقدام يعقوب راجعاً الى قريتهِ ولا أنيس لهُ في ذلك القفر الموحش الا ظلــهُ. ولم يكن الا قليل حتى هبت الريــح فعبثت بثوب يعقوب الضافي فصار يلوّح كانهُ طائر مدَّ جناحيهِ في الفضاء.

اماَّ الخمَّار فخطر لهُ بعــد ذهاب يعقوب خاطرٌ جهنمي فصفر لابنيــهِ فاسرعا وهما ينشفان ايديهما باطراف متزريهما فقال لهما: «أرأيتما ذلك الافّاق الذي ههنا» فأشرأبت اعناق الولدين الى والدهما فاردف: «ان مع هذا الغرّ . . . ٤ فرنك ! . . وهو اعزل لا سلاح لهُ وانما يعتقد انهُ معزَّز ببعض الايقونات. فدونكما معاجيل الطريق واسبقاه الى رأس الغابة السوداء. وترصداه ملياً حتى اذا بلغ اليكما فتكما بهِ . . وبعد ساعة تكون الاربعة الآلاف فرنك لنا . . أفهمتما؟»

فدمدم الكبير وقال: ليس ذلك بالمطلب الصعب. وأيد الصغير زعم اخيــهِ قائلاً: بل هو اسهل من السهل. ثم ذهبــا يعدان ما يحتاجان اليهِ فعمد الصغير الى قضيب من حديد اماَّ الكبير فاستلَّ مديةً لها حلقة وشفرة مرهفة وقال لابيهِ: أتشاء ان نختطف روحــهُ اختطافاً ؟. فتوقف الاب لحظة ثم هتف: على من يسعى أن يتمم المسعى. وبعد أن نفض الشابأن الطريق مشياً حثيثاً فما لبثا أن تواريا عن العيان

وكان يعقوب مذ جنّ الليل وانتشرت فوقهُ اجنحة الظلام يسير تعباً متثاقلاً حتى بلغ الغابة السوداء فزاد استيحاشه بين اشجارها المتكاثفة واضطرَّ ان يقصر الخطى اتقاء الاخاديد وحذراً من الاغصان التي تعترض المارين ثم اخذ يقتحم العقبة المؤدية الى الطريق

وبينما هو كذلك اخذت خناقهُ يدٌ كأنها من حديد . وكفٌّ شثنةٌ أطبقت فمهُ فلم يكد يحتاط لنفسهِ حتى توالت برأسهِ ضربة هائلة ضعضعت صوابهُ وجدلتهُ على الارض صريعاً

فبقي المسكين زمناً غائباً عن الهدى ولمَّا عاد اليهِ الرشد أحسَّ بآلام مبرحة وكان الدم يتفجر من جبينهِ وقد صبغ وجههُ . ونظر فاذا ثيابهُ قد تمزَّقت وجيوبهُ قلبت فعاد في حالةٍ يرثى لها . فحاول الوقوف مراراً فخانتهُ القوة لكنهُ تجلد وجرَّ نفسهُ الى بركة ماء قريبة وما اتاها حتى كاد يغمى عليه وجعل يغسل الدم ويزيل الاوحال . فانعشهُ الماء قليلاً حتى استطاع ان ينهض فعرف قبعتهُ وعصاه من بقايا ثيابهِ المبعثرة هنا وهناك . لكنهُ رأى من نفسهِ العجز عن أن يتمم سيره فيقطع ما تبقى لهُ من الطريق ففكر ان يرجع الى الخمّار فيسعهُ هناك ان يتعافى قليلاً وفي الغد يستأجر عجلةً تحملهُ الى قريته . . .

فراح المسكين يسحب جسمهُ المثخن بالجراح وادار ظهرهُ

للغابة السوداء وقفل راجعاً على اعقابهِ

وفيما هو سائر كان يردد في ذهنـهِ ما جرى لهُ فكان يشكر الله على نجاتهِ ويحمده كل الحمد اذ وجد في طيّ قبعتهِ الاربع الورقات التي كان ربحها. ولمّا جاز الغابة بدت السماء من فوقهِ وقد تألقت على صفحتها زهر النجوم. فجثا على قدميهِ وصلى قليلاً ثم اخذ الايقونتين وقد كان وجدهما قرب الحفرة التي القي فيها وقبلهما بعواطف الايمان والشكر

***

مضى على الخمّار ساعة وهو مبلبل البال قلق الخاطر وعيناه الحمراوان تكادان تخرجان من وقبهما. فعاد ابناه في اثناء ذلك فارغين ودخلا يبربران ويدمدمان. فلمّا علم ابوهما انهما قد رجعا خائبين تميّز غيظاً وصاح بهما:

يا لكما من غبيين احمقين! كيف لم تعودا بالمطلوب؟

ثم اخذ يروح ويجيء كمن تخبطهُ الشيطان

وكانت الحانة مضاءة بسراج والنور ينساب منها خلال الزجاجات وشبكات النوافذ فيشتبك في الخارج ببعض الخيالات فيتشخص للناظر مشهد مشؤوم

هذا والابنان مطرقان خجلاً وهما يعتذران بما لم يصب من ابيهما غير اذنٍ صماء.

وبعد حين قال الخمّار لوالديهِ : وهل اعدمتماه الحيوة في القليل

فأجابا جواب من قد فاز بالمنى وقالا : ورأسك لقد كدنا نطحنهُ طحناً

فقال الاب : او لم تجدا معهُ شيئاً ؟

فاجاب الكبير : كلاً وقد قلبنا جيوبهُ وبحثنا في جميع ملابسهِ حتى في نعليهِ فلم نعثر على قصاصة ورقة . فكشر الاب عن انيابهِ وانتهرهما قائلاً : بعداً لكما من فدمين ابلهين

فاحتدم الكبير وقال : لو كنت مكاننا ماذا كنت صنعت ؟

فاجاب والشرر يتطاير من عينيهِ : لكنت بعد ما جدتهُ حملتهُ الى ههنا وجلست على ضوء السراج اقلبهُ ظهراً لبطن وابحث حتى في اعماق جوفهِ

وفيما هو يقول ذلك اذا بيد مضنوكة تقرع الباب ولم يكن القارع المنتاب الا يعقوب مصبوغاً بدمهِ ... ولم يستطع الدخول لان الباب كان مزلجاً . فهبَّ الخمّار واسرع ليفتح وهو لا يكاد يصدق ما يرى . فدخل يعقوب فتساط على الحانة سكوت الموت . وتولى الجميع الهلع وأخذتهم الرعدة كأنهم رأوا ميتاً قام من قبره وجاء ليحاسبهم فاصفرت وجوههم واصطكت أرجلهم وتحلب العرق من جباههم وارتدَّ الاثنان الى الوراء يطلبان بايديهما المرتعشة حائطاً يعتمدان عليهِ .. اما الاب فاستمرَّ وحده

واقفاً في وسط الحانة وعيناه شاخصتان الى يعقوب دهشةً وخوفاً

فقال يعقوب متلجلجاً : او يدهشك يا صاح ان تراني على هذه الحال ؟ .. فأرتج على الخمَّار ولم يقو على الكلام . فكرَّر يعقوب قولهُ ثم اشتدَّ عليهِ الهزال فلم يعد يتمالك الوقوف فاستلقى على الكرسي وقال للخمَّار : عليَّ بكأس ...

فأسرع الخمار وهو لا يكاد يقوى ان يبسط يده ليسكب له الشراب .. فلما برَّد يعقوب غليلهُ قال : تصوَّر يا صاح اني وصلت الى الغابة السوداء . فكنت اجوزها وانا غير حاسب للدهر حساباً واذا وغدٌ عاجل راسي بضربة زعزعتني فهويت الى الارض

فابتدر الخمار الكلام وقال : او لم تعرف الضارب ؟

فاجاب يعقوب : كلاَّ ...

فتنفس الجميع الصعداء وقشعت عنهم كلمة يعقوب غيمة الكرب . فدنوا اليه فشرع يقص عليهم ما جرى له لكنَّ الخمَّار عاجلهُ قائلاً : كأني بالاشقيا ، سلبوك جميع ما معك ! ..

فاجاب يعقوب بنغمة الظافر المنتصر : كلاَّ ! .. لم يسلبوني شيئاً .. كانهم لم يطلبوا غير حياتي والبرهان ان الاربع الورقات لا تزال معي لم تمسها يد لص . والايقونتان ايضاً ! .. فكأن الشقي خشي اعينها الاربع وقد نظرت اليه شزراً

فقال الخمَّار بصوت مرتعش : واين كنت خبأت الاوراق ؟

فقال يعقوب: اين ؟ . . في بطانة قبعتي . .

وحينئذٍ خيم السكوت ثانيةً فوق الحانـة . . وتبادل الاشقياء نظراتٍ مشؤومة كانهم يتسآلون . أنجهز عليـه للحال أم نتربص قليلًا . .

اما يعقوب وقد كان مشغولًا بجراحهِ فلم يلحظ شيئًا فطلب اليهم سريرًا . .

فهتف الخمَّار وقد ابرق وجهـهُ سرورًا وقال: على الرحب والسعة ايهـا الضيف الكريم واذا لم يكن لنا سرير فرشنـا لك الصدور وها اني اعد لك سريري . . . سريري انا

فقال يعقوب : ليس السرير لسوى بضـع ساعات فلا داعي لانزعاجك

فاجاب الخمَّار بصوت مضطرب كانهُ لم يعد يملك نفسهُ فرحاً بالغنيمة القريبـة وقال: لا انزعاج منك يا يعقوب ولا كرب اصلًا فيا مرحباً بك !!

***

كان يعقوب بعد ساعة مستلقياً على السرير في غرفة الطبقـة العليا فوق الحانة وقد آلمتهُ الكلوم وبرَّحت بـهِ الآلام . فكانت تلك الليلة ليلة الاوجاع فاستغرق هزيعاً من الليـل ثم انتبه وقد تشربتهُ الحمى فاهوى برأسهِ الى الوسادة وجعـل يعالج النوم من

جديد علهُ يجد فيهِ مخففاً لاوجاعهِ فلم يفلح فعزم اخيرًا ان ينهض في طلب شيء من الخل او غيره ليفرك بـه بدنهُ وراح يبحث في الظلام حافياً ونزل الدرج فلقي الباب المؤدي الى الخانة موصدًا .

وبينما هو كذلك اذ سمع همساً فاعار اذنيـهِ ليلتقط ما يقال فاذا الخمَّار يقول: يا لكما من غرين لا تجربة لهما. كيف لم تبحثا في القبعة وانها لاول مخبأ يخبأ فيـهِ ? . اليكما عني فما انتما الا عار على ابيكما. عمَّا قليل تنظران كيف اتدبر الامر. ألا امهلاني ريثما يكون قد استغرق في النوم فتريا ثمَّ هل يصلد لي زند أم يطيش لي سهم. ويرى يعقوب ان ايقونتيهِ لم تدفعا عنهُ الويلات

ثم اخذ يتبصر في الامر وينظر في الوسائـل فقال: الاولى ان اميتهُ خنقاً فلا نضطر بعد ذلك ان ننزع ثيابنا. واني قبـل ان تبرد جثتهُ اقذف بها من النافذة الى الحفرة التي تسرعان الان الى حفرها تحت اكداس الدمن وليكن عمقها زهاء ذراع

فلما سمع يعقوب ما سمع كاد يذهب عقلهُ فصعـد للحال من حيث نزل ورجع الى غرفتهِ واخذ يتوسل بذريعـة تنيلهُ النجاة ولكن اين المهرب والحديقة من ناحيـة والطريق من ناحية. فاذا رمى بنفسه سقط قريباً من الخانة فانتبه لهُ اعداؤُه او نبح عليـهِ الكلاب فضلًا عن ان السقطة تفتح كلومهُ . هذا اذا فرض انهُ لا يموت بسقوطهِ

وفيما هو يتفكر ويتبصر خطر لـهُ خاطر هائل فقال: انهم لعازمون على قتلي. وما تلك بالمحاولـة الاولى. واني ارى ان الدين وشرائع الارض والسماء تبيح الدفاع عن النفس وتحلل قتـل من اراد القتل

وكان الخطر رد لـهُ كل قوى شبابهِ فنهض للحال يطلب سلاحاً يدرأ بـهِ عن نفسه .. ؟ ولكن اين السلاح ؟ فليس في الغرفـة مدية .. ولا عصاً ... واذ كان يبحث بصر بقنينـة عظيمة مملوءة ماء معدنياً كانت منسية في زاوية من زوايا الخزانة وتلك لعمر الحق تكون في يد من لم يعرف الخوف نعم السلاح. فحسر عن يديـهِ فبدا ساعدان مفتولان ووقف وراء الباب ينتظر في ذلك الليل البهيم وهو فاتح عينيهِ ناشر اذنيـهِ ليعرف ما يعدون لقتلهِ

وكان الاشقياء قـد شرعوا في حفر الحفرة تحت اكداس الدمن ويعقوب يسمع باذنيهِ صوت تراب مدفنهِ وقد رفعتهُ مجارف الاشقياء والقتهُ الى جانب القبر

فقال احد الابنين: أفما يكفي هـذا العمق ؟. فانحنى الاب ونظر ثم اجاب: عمقا ايضاً قدر ربع ذراع

فاستأنف الثلاثة الحفر صامتين ... وبعد بضع دقائق توقف الاب وقال لابنهِ الصغير: اين وضعت مدقة الحديد ؟

— وراء الباب . ولماذا ؟

قال لقد عدلت عن رأيي وبدا لي ان اسلبهُ الحيوة بضربة تسحق رأسهُ . فذلك خير من خنقهِ وأسرع لحتفهِ

ثم دخل الحانة فعاد بالمدقة وهمّ بالذهاب فخطر لهُ ان يستثبت عمق الحفرة ثانيةً وبعد ان تفحصها قال : حسن . لكن الامر يتطلب منتهى الانتباه فانتبها . واني اقذف لكما بهِ سخناً فتلقيانهِ للحال في الحفرة لئلا يبقى فيهِ رمق ثم تحثوان عليهِ التراب ولكن حذار حذار من سراج او شبه نور فحسبنا مارٌ ليكشف الامر فهيا . . .

فاجاب الابنان : ها نحن ذان

وقال الاب : الان جاءت نوبتي . . .

اما يعقوب فكان عند ذلك متسمراً بين الباب والحائط فسمع نأمة الخمار يخلع نعليهِ ليحتفي ثم اخذ في الصعود بمنتهى الهدوء والسكوت . . .

فكان كل من البقار والخمار تحت الظلام يتجسسُ حركات صاحبهِ وكلاهما يحبس نفسهُ خيفة ان يدري الآخر بهِ . .

فلما انتهى الخمار الى قمة الدرج توقف لحظةً شأن من يتردد قبل الاقدام على خطب فظيع . ثم تقدم بكل احتياط

ففتح الباب وقار اليـه مشياً على اطراف قدميهِ منتحياً ناحية السرير . . .

لكنهُ لم يخطُ خطوتين حتى ابتدره يعقوب بضربة هائلة على ام رأسهِ واتبعها بثانية وثالثة كما يعيد الحطَّاب الضرب على جذع شجرة أبت ان تسقط . فثنى الخمَّار ركبتيهِ وبسط يديهِ المتشنجتين بسطاً مخيفاً وخرَّ صريعاً . فدمدم احد الشقيين من أسفل قائلاً : لقد تم العمل

فما كان من يعقوب الا ان نزع ثياب الخمَّار وفيهـا مفاتيح الدار وتعجل لبسها والبس الجثة ثوبهُ الموحل الممزق وعصب موضع الجرح ورمى بالاب الى ولديهِ

فسمعهما يجرانهِ الى الحفرة فزجا بهِ فيها واندفعـا يحثوان عليهِ التراب فصدق بهِ المثل « من حفر حفرة لاخيهِ وقع فيها »

وقد كانت تلك الخلسة في عين يعقوب ثمينة فانتهزها وتسلح بمدقة الحديد اذ ان الزجاجة قد تحطمت على راس الشقي وأسرع الى الدرج فنزلهُ وهو لا يلوي على شيء . ولم يكن لينسى قبعتـهُ وفيها الاوراق المالية نائمة براحة . فجاز الحانة خاويةً خاليةً وهياجهُ عظيم حتى لم يعد يشعر بألم جراحهِ . ووصل الى الباب البراني ففتحهُ ثم اقفلهُ وراءه واخذ الطريق واطلق ساقيهِ للريح

***

لم يمض على الحادثة ساعــة حتى وفد الى الخانة خمسة جنود ومن ورائهم عجلة فيهـا يعقوب . وكان ابنا الخمّار اذ ذاك جالسين في احدى زوايا الخانة يتحدثان بغضب وقلق وهما يجهلان سبب اختفاء ابيهما فكان يخيـل اليهما انهُ يطوف البرّية فرحاً وجيوبهُ محشوة اوراقاً مالية . وانهما لكذلك اذ فتـح باب الدار بغتةً وابصرا الجند قادمين فتولتهمـا الدهشة وارتعدت فرائصهما لاسيا وقد نظرا من خلال حراب الجنود وجـهِ يعقوب المدمى . وقد كانا يحسبانِ انهُ صار من سكان القبور فوقفـا مدهوشين شاخصين

فدنا زعيم الجند وقال للاخ الكبير : اين ابوك ؟ فاجاب هذا متلعثماً : لا اعلم ! فانتهره الزعيم قائلاً : ان كنت تجهل مكانهُ فتعال لاريكهُ . واتجه نحو الحديقة وتبعهُ الجمع والابنان ايضاً وقد كان القرويون اسرعوا جميعهم وراء الجنود ليعلموا ما الخبر . فامر الزعيم الولدين ان يستأنفا الحفر ففعلا مرغومين

وهناك ... على مشهـدٍ من الجنود نبش الابنان جثـة ابيهما ! ... فاخذ الجميـع ذعرٌ شديد . وكانت جثة الخمّار مشوهة لان ولديهِ كانا وطئا وجههُ بارجلهما وخدشا جسمهُ بمجارفهما

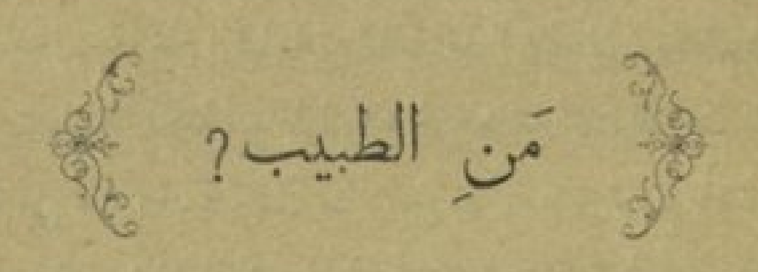
ولمّا ان بسطوا الجثة على رمال الحديقة كانت الشمس قـد

بزغت من وراء الافق وألقت اشعتها فوق تلك النواحي. فرأى الجميع عقاب الله وشاهدوا عدلهُ الرهيب !!

فرسم يعقوب على صدره اشارة الصليب والتفت الى الجثة فقال: ليغفر لك الله

ثم ارتدَّ الى الابنين وقال: ايها الاخوان اني ناصح لكما ان يحمل كل منكما على صدره ايقونة حتى تكون لكما درعاً تتقون بها سهام البوائق وحرزاً يصونكما من شرّ النوازل والغوائل !...





مَنِ الطبيب ؟

مَنِ الطبيب ؟

ما بزغت الشمس حتى هبَّ فارس الى بيت عملهِ فجلس وحواليهِ من الالات والاوعية والقناني ما يكاد لا يُعد. وما كان فارس رجلاً كسائر الرجال فهو كيماوي شهير تخرَّج في اعظم مدارس اوربة فنال فيها من الشهادات العالية ما أهلهُ لأن ينتظم في عدة جمعيات علمية. لكنهُ مع طول باعهِ في صناعتهِ كان للاوهام الفاشية سلطة على عقلهِ وقد تمكنت منهُ حتى بذل غاية الوسع في تأييدها والباسها ثوب الحق الصابح. وشاب وتلك الاوهام تحكم عليهِ. ولما اتت عليهِ سنون بعيداً عن بلاده عنَّ لهُ العود الى الوطن

فكان في هذا الصباح مكباً على العمل بنشاط وهمة ونظارتاه راكبتان على صهوة انفهِ وعيناه الكمشاوان تجولان فيما امامه

ولم يكن الّا قليل حتى استوى العلامة جالساً وهتف ليحيَ ! ليحيَ ! نجح الاختبار في الضفادع فلا غرو أن ينجح في الانسان ايضاً فما هو في الحقيقة الّا ضفدع. وهذا لعمرك كشف علمي يحقّر اعظم ما اكتشفهُ العلماء من قبل. ولسوف يحملُ اسمي ويسير بشهرتي الى العالم كله

فاذا حاول درون ان يثبت انتساب الانسان الى القرد فانا اثبت أن الانسان سليل الضفدع. وحسب المعترض دليلًا ان ينظر الى ما في الانسان من الميل الى الاستحمام والكلف بالماء. فضلًا عن حركاته غير المرتبة ورغبته في التنقل من مكان الى مكان. واحسبني لحظت ان لمسعود خادمي حركات غريبة فكأنَّ اصله الضفدعي يضطره اليها. ولكن ما لنا ولهذا فان الفضل كل الفضل لكشفي العجيب فبه يسعني ان انام ما شئت. ولست افقد في زمان هذا النوم النافع من قواي الطبيعية شيئاً. حتى كأنَّ الايام التي ينام فيها الحيوان بواسطة هذا المخدّر لا تكاد تحسب من ايام حياته

فليس لمن يشاء ان يرقد شهرًا او سنة او عشرين الا ان يجرع من هذا المزيج العجيب فينهض بعد راحته الطويلة اشدّ قوة وانضر عافية. والفضل في ذلك لي انا

فاذا شق عليك يا فارس فصل من الفصول او ضقت ذرعاً بامر فحسبك ان تستنشق هذا المزيج فيوافيك النوم ولا يرحل عنك الا بعد الزمان الذي تكون قد اردته. فتستيقظ بعد مائة سنة مثلًا فتراك في عصر جديد وسياسة جديدة

فلو شق حكم الاستبداد على احد الاحرار ورأى هذا ان ليس لضياء الدستور ان يطلع قبل عشرين سنة فليس لهُ الا ان يتناول

من هـذا المخدّر فينجو من ظلـم الاستبداد ويستيقظ في رياض الدستور فيتنعم بثمار الحرية

ثم اردف علامتنا قائلاً: أجل ان الاختبار قد نجح في الضفدع ولكن من يؤكد لي سهولة تأثيره في الانسـان؟... فعليَّ ان اتروَّى في الامر ولا اتعجل ركوب الشطط. فاذا اتفق ان غلطت في جرعة الاسبوع او السنة مثلاً وجرعت مكانهما جرعة المائة سنة فاجرُّ الى نفسي سيول الوبال والويلات

وكان العلامة حين ذاك منحنياً فوق وعاء مزيجه والغاز يتصاعد منهُ شيئاً فشيئاً وما هي الَّا ساعة حتى احسَّ بدغدغة قوية في انفهِ ففغر فاه واذبل عينيـه وفتح منخريه وعطس اثنتين وثلاثـين عطسة...

وما انتهى من تلك العطسات حتى اخذه اضطراب شديـد فحاول النهوض فلم يستطعهُ وشعر كأن قوة قاهرة جذبتهُ الى كرسيه والصقتهُ بها. فهتف متلجلجاً: أو جرعت جرعة ... ولكن...

وكان علامتنا من الدهريين القائلين بان العالم موجود ازلاً وابداً لا صانع لهُ. وكان ايضاً عضواً في عصابة الاشتراكيين شديد الغيرة على هذا المذهب حتى انهُ رشح ليكون رئيساً. فكان يسعى في اخضاع العالم لشريعة المساواة العامة. واما الحرية والاخاء فقيدهما بشروط

تلك كانت حالة نفس العلامة فارس — هذا اذا صح ان له نفساً فقد كان ينكر خلودها —

وفيما هو يفكر في كشفه الجديد ابتلع على غفلة كما سبق القول شيئاً من غازه المخدّر فعطس تلك العطسات الهائلات ثم غاب عنهُ الشعور ودخل في عالم الرقاد . . . . .

فرأى بلدة عامرة ودوراً مبنية على طرز واحد واسطوحها هيئة واحدة وجميع ابوابها ونوافذها على طريقة واحدة واتساع غرفها وجميع ما يتبعها على نسق واحد وترتيب واحد

ورأى امام كل دار حديقةً فيها عين البقول وذات الازهار التي في سائر الحدائق . ورأى الناس يجولون في الشوارع وثيابهم على زي واحد ومن لون واحد ولحاهم محلوقة وشعور رؤوسهم معلقة وممشوطة على نسق واحد

فاخذ منهُ الاندهال فدنا من احد المارين وقال له اين نحن يا صاح ؟ وما اسم هذه البلدة ولِمَ ارى اهلها على هذه الهيئة الغريبة ؟

فأجاب الرجل . أو انت غريب عن اورشايم ؟ أفما تعلم انك في بلدة المساواة التي عددها ٢٥٩٧

فمدّ العلامة صوته قائلاً : بلدة المساواة ؟ . .

قال الرجل : نعم

قال: وعددها ٢٥٩٧ ؟...

فقهقه الرجل !! رأى من انذهال فارس وقال: كأني بك ياصاح غرّ مغفل !.. من اين آتٍ انت ؟ وكيف يفوتك ان المساواة قد عمّت الولايات العثمانية كلها جمعاء ؟ وان قد جعل لكل مدينة وبلدة عدد يفرزها عن سواها. وانت الان في احداها. فأجل طرفك وانظر ترَ ان جميع ما فيها من سكان ودور وشوارع على نمط واحد وترتيب واحد

فصاح فارس طرباً: أو صحّ فألي وساوت المساواة بين الناس ؟...

قال الرجل نعم ومساواة عامة

فقال فارس: رجوتك ان تجيبني على هذا السؤال

قال: سلْ

قال: في اي سنة نحن ؟

قال: في سنة ٢٠٠٩

فقال فارس ٢٠٠٩ !.. ذلك عجيب غريب فاكون اذاً قد رقدت ١٠٠ سنة تاماً ! نعم مائة سنة اي منذ خلافة السلطان عبد الحميد

فقال الرجل: لست افهم ما تقول

قال كيف لا تفهم ! أوَ تجهل التاريخ ! وهل فاتك ان عبد الحميد كان سلطان البلاد !...

فهز الرجل رأسه وقال: لقد اتى على ذلك سنون وتغيرت الاحوال وتبدلت الامور

فاشتد بفارس الشوق الى الاطلاع على ما كان في ثنايا تلك السنين. لكنَّ الرجل كان متعجلاً فاستأذن وانصرف

فاستوقفهُ فارس وقال: كلمة يا صاح كلمة لا غير

قال: قل

قال: أنت ولا ريب ماضٍ الى عملك؟

فضحك الرجل من سؤالهِ ومرَّ وهو يقول: يا لهُ من مغفل أبله! كيف يجهل أن العمل قد أُلغي! ما هذا الّا احمق مجنون

فزاد اندهال فارس ووقف الى جانب الطريق يحصر افكاره. وقد تشتتت لما رأى وسمع

ثم هتف بعد حين. طب يا فارس قلباً وقرَّ عيناً فقد بلغتَ الى اقصى اربك وها انت في قرن تحقق فيهِ الوية المساواة. فتحققت بذلك امانيك وأتم الغيرِ ما طالما اشتهيتهُ وفاز حزب الاشتراكيين فوزًا مبيناً

وفيما هو يحدّث النفس ويهنئها شعر وقد صخدتهُ الشمس بحرّ شديد. فغضب وصاح: ان المساواة لم تبلغ بعد حد الكمال. والّا فلمَ أرى نصف الطريق ملفوحاً بحر الشمس والنصف الآخر مظللاً. فذلك مما يشوّه وجه المساواة. فمن اللازم اللازب ان يكون لجميع

الطرق حق في الظل والشمس واحد !...

وانهُ لكذلك اذ مرَّ به رجل شوَّهتهُ الايام وحدَّبتهُ الطبيعة فحيَّاه فارس بالسلام فرد عليه الاحدب التحية وقال له . من أين آتٍ انت ؟ وكيف تجسر ان تظهر بمثل هذه الملابس التي اراها تخالف قوانين الشريعة . فلا بد ان تكون آتياً من اقصى مدن الحبشة او ان تكون قد وصلت بك الحماقة الى حدٍّ يسمح لك بهِ ان تتردى بما يخالف ملابس الوطنيين . فاعلمنْ يا صاح انك تجرح المساواة بذلك

فاجاب فارس بكل دعة ولطف وقال : لا تغضب يا صاح واعذر غريباً اقبل من اقصى بلاد الله الى عالم الدهشة والحيرة

فقال الرجل : اجل لا ريب انك آتٍ من اطراف الارض فان زيَّك يثبت ذلك

فقال فارس : وددت يا صاح ان اعرف هل عمت المساواة جميع الوطنيين بحسب ما كان يتخيلها العلماء من قبل ؟

فقال الاحدب هذا مما لا شك فيه فنحن كلنا في الحق سواء .

فهتف فارس أصحيح ذلك ؟..

قال الاحدب : نعم نعم نعم !!! وان اولياء الامور يعيدون التوزيع في كل ثمانية ايام ليجعلوا المساواة دائمة بين الجميع

وقد كان علامتنا مشوَّش البالَ قلقاً والاحدب مهذاراً ثرثاراً

فواصل الحديث وقال: لما كانت القسمة عام ١٩٧٩ جمعوا الاموال في محل واحد فوزعت على الجميع بالسواء فاصاب كل وطني ٥٠ الف غرش

فهتف فارس ٥٠ الف غرش !!...

قال الاحدب نعم ولكن لم يأت آخر الاسبوع الاول حتى رأى ارباب التوزيع ان المساواة قد اختلّت

فقاطعهُ فارس قائلاً وكيف اختلت ؟..

فقال الاحدب: ان الانسان لم يكن بعد قد صار أهلاً للمساواة . فكان البعض يبدد حصته في اسبوع والبعض الاخر يقامر بها فيخسرها وغيرهما يبعث بالمال الى غير بلاد فضلاً عن السرقة والاختلاس . اما ما هو اهم من جميع ما سواه فهو ان البعض كانوا يقتصدون ويذخرون . فانقطعت حلقات المساواة واصبح من الناس من يملك مائتي او ثلاثمائة الف غرش وامسى السواد الاعظم صفر الايدي

فقال فارس: وما كان اذ ذاك ؟..

— كان ان اعادت الدولة القسمة واكرهت الاغنياء على ان يقاسموا الفقراء . ولما كان الفقراء لا يبرحون فقراء عثيت السكارى والمسرفين كانت القسمة منشأ الخصام ومبعثاً للنزاع . فاضطرت الدولة ارضاء للفقراء وهم العدد الاكبر ان تقضي بالموت على

بعض الموسرين . وقررت الغاء السعي والعمل بدعوى انها منشأ الارباح المحرمة

فقال فارس وأنى للناس ان يستغنوا عن السعي والعمل ؟..

فاجاب الاحدب ان الدولة تستعمل عبيداً تستقدمهم من اقاصي البلاد

قال: والاملاك ؟..

قال: ايّ املاك؟.. فلم يعد لاحد ان يملك شبراً ارضاً فقد صار كل ملك الى يد الدولة

فقال فارس: ان في هذا لعجباً

قال الاحدب: نعم قد انتقلت الاملاك الى حوزة الدولة وهي كل صباح تعطي كل وطني عشرة غروش مياومة

فقال فارس: ومن اين للحكومة ان تنهض بنفقة اربعين مليون انسان لا يأتون عملاً

فاجاب الاحدب لا تعجب يا صاح فان الدولة تسترد باليسرى ما ادّته باليمنى. لان كل وطني يضطر ان ينفق في اليوم عشرة غروش فهو اذن يعيد الى الدولة ما أخذ منها. فهي تتقاضى منهُ كراء داره واثمان مقتضيات حياته بحيث انها تنفق في نيسان ما قبضتهُ في اذار

فهتف فارس: حقاً ان هذا الترتيب لعجيب محكم. لكني ارى ان الدولة لا يسعها ان توسر ابداً

فاجاب الاحدب ليس انها لا توسر فقط بل انها قد اقترضت من الدول حتى تراكمت عليها الديون فاثقلت كاهل بيت المال واضطرتها الى بيع بعض املاكها لتفي بعض ما عليها

فتطّب فارس وقاطع الاحدب قائلاً: لقد بلبلت بالي واقلقت خاطري حتى عدت أحسب ان المساواة لا تُجدي الاجتماع البشري نفعاً ولا تخفف عنهُ عناء.

فاجاب الاحدب ذلك واقع الحال. وقد صار الجميع يرون ان المساواة العامة هي من الوهميات. ثم انتصب الاحدب – بقدر ما مكنتهُ حدبته – وقال ساخطاً: والا فلمَ اكون ذا حدبة وليس لي بطن وانت تكون ذا بطن وليس لك حدبة. أفليس هذا تفاوتاً مجحفاً. واني الان على يقين من ان في جيبك دراهم تستعين بها وانا قد قامرت هذا الصباح فخسرت حصتي فعاد كيسي افرغ من قلب ام موسى

فطيَّب فارس خاطر الاحدب وقال لهُ: لا تقنط يا صاح ولا تيأس. وتعال معي الى مطعم نأكلَ فيهِ فقد نالني من الجوع ما نالك

فابرقت اسرَّة الاحدب وذهب بفارس الى مطعم نشر فوق مدخله راية كُتب عليها – المطعم الوطني – فقال فارس أو نجد هنا طعاماً نظيفاً انيقاً

قال الاحدب : ان الاكل للجميع واحد . وهم يتقاضون على كل شخص ثلاثة غروش

قال فارس : واذا شئت ان آكل بما قيمتهُ خمسة غروش او اكثر ؟

فاجاب الاحدب حذارِ حذارِ فاذا اقدمت على ذلك كان السجن مبيتك . فان المطعم ملك الدولة ولقد سبقت وقلت لك ان الدولة قد احتكرت كل شي . . فاذهب الى اي مطعم شئت فتجد ان المآكل للجميع سواء

وفيما هما يتحدثان اقبل العبد بورق اللعب وجعل امامهما مائدة خشب غليظة وسخة وذهب

فتأفف فارس لما رأى وناداه قائلاً اين ادوات الاكل ؟

فاجاب الاحدب : ليس من ادوات

قال : والصحون ؟

قال : وليس من صحون ايضاً

قال : والخمر ؟

قال : لا خمر فالشراب ماء قراح

قال : وما هي الالوان التي تقدم لنا وما تكون اصناف اللحوم

فاجاب الاحدب قد حُظر اكل اللحم اذ لا بد لذلك من بقر وغنم وغيرهما وجميع هذا يضطر الناس الى الحراثة وها قد مر

بالارض خمسون سنة ولم يشقها محراث حارث

فتململ فارس وقال : اذا لم يكن من لحوم أفليس من بقول ؟

قال الاحدب قلت لك ان ليس من يعمل ولا من يحرث فمن اين تأتي البقول

فكبر الامر على العلامة فارس وشق عليه الخبر وذكر شرائح اللحم وعجة البيض والخس والفجل والخمر المعتق فهتف وما يقتات الناس اذن وكيف يعيشون ؟

فقال الاحدب : لكل انسان ان يشتري بثلاثة غروش حبوباً مركبة تركيباً كيماوياً يجد فيها المرء ما يقوم بحياته

فبهت فارس وقال وقد اشتد عليه الجوع : ليس لنا الا ان نختبر

ولم يكن الا دقيقتان حتى ازدرد صاحبانا بثلاثة غروش حبوباً مغلفة بورق مفضض . ثم رجع العبد بالعلبة فارغة فقال الاحدب قد انتهينا

فقال فارس : أليس من خمر او عرق او غيرهما

قال الاحدب ان هذه المشروبات قد احتكرتها الدولة لما رأت ان لا قيام للدولة بدونها فتعال معي اذا شئت الى الحانة الوطنية

. . .

فتبع فارس الاحدب وسارا حتى انتهيا الى حانة كبيرة في

مدخل الشارع الوطني فدخلاها فرأى فارس فيها جمهوراً من الناس كبيراً وسمات التوحش في وجوههم وقد امتلأت الحانة من جلبتهم فعادت كأنها جحيم الهالكين

فقال الاحدب وقد رأى اندهال فارس: لا تعجب اذا رأيت الحانة غاصة بالناس فهم يرغبون عن ذلك القوت الكيماوي الى المسكرات فينفقون فضتهم في سبيلها

وكان الجوع والعطش قد اشتدا على علامتنا فاحرجاه ان يذوق. لكنهُ ما شرب كأساً واحدة حتى أحس بألم في جوفهِ شديد. فجعل يتذمر ويتأفف

ولما ان خفّت آلامه سأل الاحدب ان يطلعهُ على نجاح الهيئة الجديدة وفلاحها وطلب اليهِ ان يجول بهِ ليتفرج على المدن المجاورة وقال: ان بلدتكم عارية عن المتنزهات والملاهي

فاجاب الاحدب تلك حالة بلادنا كلها جمعاء.

فابتدره فارس قائلاً: اليك عن هذه الاوهام فاني متيقن ان في دمشق الشام من مواضع اللهو والحظ ما يثلج الصدور ويهزم الغموم

فقال الاحدب: لا اسهل من السفر الى دمشق فان الوسائل الجديدة قد قرّبت المسافة بيننا

قال وما هي تلك الوسائل الجديدة التي اصبحتم تتوسلون بها

أتراكم تركبون الطيارات ام تستعينون بالاجنحة

قال الاحدب ما انت يا صاح الّا في غرور. فان الطيارات قد ذهبت بحياة الكثيرين فلم يعد من يطيق ذكرها

قال: والسكة الحديدية

فقال الاحدب: تلك سكك اوشكت ان تجر الى الدولة الخراب والدمار. فان هذه اي الدولة كانت قد سعت فاشترت جميع الشركات لكنها بعد حين رأت نفسها وقد رزحت تحت اثقال الاشغال. فان وكلاء الامة كانوا يكلون وظائف السكة الى اصدقائهم والذين انتخبوهم — وكان العمل لم يُلغَ بعد تماماً — فصار جميع المنتخبين يتزاحمون ويتدافعون ليكونوا مديري محطات فنشأ عن ذلك قلق وتشويش. ولما ان صارت السكك الى يد الدولة اصبح الناس يرون ان لهم الحق في ركوبها مجاناً. فتوالت الخسائر على الدولة وضاقت ذرعاً حتى لم تجد مَخلَصاً الّا في ملاشاة السكك كلها.

فهتف فارس وكيف صار الناس يسافرون ؟

قال الاحدب: قد رغب الجميع عن الاسفار. وانما يكون السفر للنزهة او للتجارة. اما للنزهة فليس يلقى المرء في سائر المدن من اسباب اللهو والطرب غير ما يلقاه في بلدته. واما التجارة فلا تجارة فقد أُلغي السعي والعمل. واما الغرباء والعثمانيون الذين يشأون الانتقال

من جهة الى اخرى فلهم الالة المعروفة بالمدفع

فاشرأب فارس واشار اشارة من لم يفهم

فقال الاحدب نعم المدفع وتلك آلة متقنة محكمة

وانهُ ليقول ذلك واذا صوت شديد دوى فقال الاحدب هاك المدفع فهو يسافر الساعة ٣٥،٤

فنظر فارس فرأى كرة عظيمة وقد انطلقت من فوهة مدفع هائل وسارت في عجاج دخان فما لبثت ان توارت في طبقات الجو

فقال الاحدب :تلك هي القذيفة. وان في جوفها ستة مواضع يجلس فيها المسافرون فتدفعهم واياها حركة كهربائية الى مسافة مرحلة فتسقط في موقف معين فتدفع منهُ الى موقف ثان ومنهُ الى ثالث بحيث انها تجتاز في بضع دقائق عدة مراحل

فهتف فارس قائلاً ذلك من افضل ما يكون! لكني ارى ان المسافر لا يتفكه بمحاسن السفر ولا يسعهُ ان يرى من جوف تلك القذيفة شيئاً فضلاً عن ان في هذه الالة اخطاراً

فاجاب الاحدب اما محاسن السفر فليس هنالك محاسن واما الاخطار التي ذكرت فهي جمة كما رأيت اذ قد يتفق ان تسقط القذيفة الى الارض قبل بلوغها الى موقفها او ان تنفجر انفجاراً وهنالك الطامة الكبرى. ولكن لا تكون عجة بلا كسر بيض...

فهل ترى الآن ان تركب المدفع فهو يسافر بعد ربع ساعة

فاجاب فارس كثَّرَ الله خيرك . فأن ابقى هنــا أحب اليَّ من ان تحملني تلك الآلة المشؤومة

فقال الاحدب لا تخف ان السفر فيها لذيذ لذيذ

فقال فارس : هل سافرت فيها مرة

قال لا ابداً

فاطرق فارس وقد اقلقتهُ تلك الاخبار ثم التفت الى الاحدب فقال : لست احب ان اثقل عليك واعوقك عما انت ذاهب الى قضائهِ

فاجاب الاحدب : كلا لا ثقلة منك وليس لي عمل بل اني اقضي نهاري وانا سمير الضجر والملل . . ولمَ العمل وقد احتكرت الدولة جميع المهن من عشر سنين وانتزعت من يــد العثمانيين حق التملك فصرنا غرباء او عابري سبيل وقــد كنت فيما مضى خياطاً وكنت أراني سعيداً

فقال فارس : أو لم يعد لك ان تخيط

فاجاب الاحدب قلت لك أن قد حُظر العمل على الناس عامة

قال : وكيف تقضي نهارك

قال : اقضيه في انتظار المساء فاذا جاءت الساعة الخامسة اعمل كباقي اهــل بلدتي اي ادخل داري خشية اللصوص والقتــلة فان الطريق من تلك الساعة تصير لهم وتراهم قد اتفقوا اتفاقاً غريبــاً عجيباً فهم يبتدئون الساعــة الخامسة مساء وينتهون عند الساعــة

الخامسة صباحاً

فهتف فارس لست افهم ما تقول !

قال الاحدب : لمّا ان الغت الدولة الحكم بالموت تدرّجت بعد ذلك الى الغاء سائر العقوبات بدعوى ان التأديب بانواعـهِ يشق على البشرية . فلم يعد من عقاب ولا قضاة ولا محاكم ولا جنود . وقـد اقتصرت الدولة ايضاً على التهذيب الوطني ولاشت جميع الاديان

فقاطعهُ فارس قائـلاً وحرروا الشعب من عبودية الكهنـة والشيوخ والحاخامات

قال الاحدب : نعـم لكن ذلك كان ضلالاً أي ضلال . فان الدولة بالغائها الدين الغت العدل والشرف . وراح الاحداث ينشأون على الخلاعة والفحشاء . ثم إنهم لا يلبثون ان يصيروا سكارى وسفكة دماء . حتى كثر عدد الفظائع والجرائم كثرة هائلة وحتى لم يعـد من يأمن على مالهِ وشرفهِ وحياتهِ

فهتف فارس لقد ادهشتني يا صاح وبلبلتني فأنى يكون ذلك وكيف يدرأ الناس عن حياتهم

فقال الاحدب : ان القتلة يخشون هياج الناس عليهم . فان السواد الاعظـم اتفقوا ان يهيجوا حينـاً بعد حين ويتألبوا على اصحاب الجنايات فيشنقون احدهم ويعلقونه في شجرة فاذا لم يرهب شنقـه القتلة فيكون في القليل كخيال يفزع العصافير

فقال فارس متعجباً : او لم يقوَ الناس ان يستعيضوا عن تلك الاديان بدين عالمي اجباري

فاجاب الاحدب لقد ذهبت آدابهم في ذلك ادراج الرياح فانهم لم يخرجوا ذكر الله من معاهد العلم حتى لحقته الامانة والصدق والشرف والتهذيب فعاد الطلبة غلاظ الرقاب اجلافاً او قل اصبحنا عجماوات لا عقل لها . . . اما الان فاني اودعك فقد اوشكت الساعة الخامسة ان تصل وباتت الطريق غير امينة

ورأى فارس ان النوافذ تغلق والابواب ترتج وتضبّب وفيما هو يفكر في كل ذلك اذا باصوات علت ولصوص احاطوا به وتألبوا عليه وهم يصيحون صياح الفرح . فذعر العلامة ذعراً وطلب الهرب فتلقاه احدهم بعصا واستلب الآخر ساعته واختطف غيره مصره فجعل فارس يصيح الرحمة ! الرحمة ! انا العلامة فارس ! . . انا من اشياع حزب الاشتراكيين . انا من الذين سعوا في ملاشاة الحكم بالموت فانتهروه وانهالوا عليه بالضرب والسب وصاح به احدهم لقد مضى ايها الخرف على الغاء الحكم بالموت مائة سنة واكثر وصاح غيره لنجهزنّ عليه . فتجاذبته الاكف وتناولته العصي وهو يصيح ويستغيث . . . .

ولما فتح فارس عينيه رأى نفسه على كرسيه في معمله والقناني من حواليه وقد سقط بعضها على الارض وتحطم فجذب الجرس وقرعه

شديداً فابتدر الخادم الباب فصاح فارس اين القتلة! اين اللصوص!

فبهت الخادم وبسط يديه قائلاً: القتـ.. لة ؟..

قال نعم أين السكارى والاحدب أين هم ؟..

فزاد عجب الخادم فقال اي سكارى واي احدب. ما بك يا مولاي ؟...

قال فارس نعم نعم في الشارع الوطني سنة ٢٠٠٩

فهتف الخادم ٢٠٠٩ ؟...

قال فارس نعم نعم في اي سنة نحن ؟

قال الخادم نحن في سنة ١٩٠٨

قال فارس والمساواة العامة

فزاد اندهال الخادم فقال لا افهم ما تقول فكأني بك قد حلمت

فتوقف فارس هنيهة ثم قال: قبحاً له من حلم هائل... لكن الذي ليس هو بحلم اني احس بالام مبرّحة

فدنا الخادم منهُ وجس يده فقال نعم ان يدك ياسيدي حارّة كالوقيد

فزاد اضطراب فارس فقال: هي ولا ريب حمى محرقة.. آه لقد فطنت.. فقد ابتلعت ولا شك من الغاز المخدر.. افتح النوافذ يا مسعود.. آه كدت اختنق.. وافتني للمنية

وقد كانت حالة فارس في الواقع خطرة

فقال الخادم لاتخف يامعلمي فما هذا الا ما يسمى بداء السكتة

لكن صدر فارس كان قد ضاق حتى تعسر عليه التنفس

ورأى الخادم ارتجاف سيده فقال اتريد ان انادي باهل البيت

واشتد ارتعاش فارس فقال متلجلجاً . . مسعود ! . . قد دنا اجلي

فصاح الخادم : مر يا سيدي ما تشاء . . ما تريد ؟ . نعم ان حالك سيئة لكن حبل الرجاء لم ينقطع بعد . .

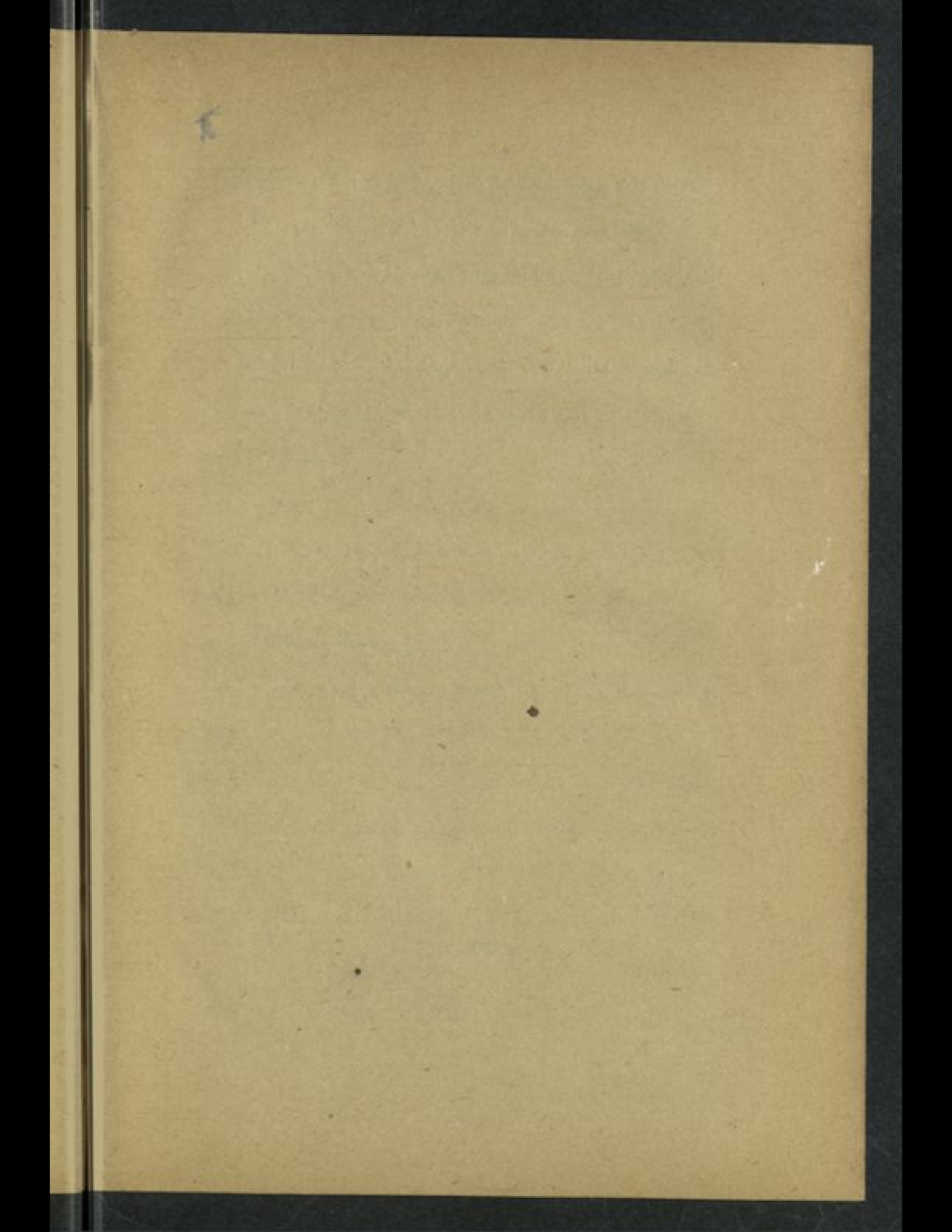
— . . مسعود . .

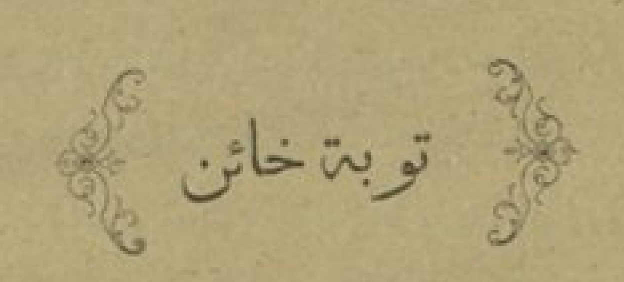
— سيدي . .

— . . ان ما رأيته في المنام قد عدل بي عن رأيي . وكشف ضلالي فكان ذلك عقاباً لكبريائي

— أأستدعي الطبيب ؟ . .

— . . نعم . . عليّ بطبيب ولكن قبل كل أمر اسرع وأتني بكاهن . . .




توبة خائن

توبة خائن

كانت ليلة الخميس من ليالي كانون الاول سنة ١٨٧٠ ليلةً هائلة: انتشر فيها الضباب حتى حجب عن قرية «ليكيسل» مصابيح السماء. وعصفت الريح كأنها ناقمة على ذلك الصقع. وقصف الرعد ينذر الناس ليصرفهم عن اتباع المحرمات الى قضا الفروض واتمام الواجبات

فكان الاب جيرار — كاهن القرية المذكورة — في ذلك الحين الى جانب النار يدفع سطوة البرد وهو يفكر في شؤون رعيتهِ التي مضى عليهِ في خدمتها الاعوام الطوال. وينظر في عواقب تلك الحرب الضروس التي انتشبت بين فرنسة والمانية فكادت تجرّ الى الوطن الخراب

وبينا هو كذلك اذا بالباب يُقرع. فنهض الكاهن الشيخ ليفتح فخطر له ما أوقفه. فقال في نفسه: لقد بثَّ هذا الشهر في نواحينا العيون والارصاد حتى بتنا نخشى مباغتة العدو في كل حين. فمن الحكمة أن استكشف عن الطارق قبل أن أفتح

فوقف الى جانب الباب ونادى: من الطارق!

فاجاب القارع: جنديٌ فرنسي جنَّ عليهِ الليل فضلَّ السبيل فأتى يسألك الضيافة

فهتف الكاهن: أهلاً بجنديِ الوطن وسهلاً! وأسرع الى الباب ففتحه وقال: ادخل يا بنيَّ

وكان الطارق قد غشَّى بصره الظلام فاختلجت عيناه عند لقاء النور فما سكن رفيفها حتى نظر الى المضيف شزراً وهو يكتم ما ضمت نفسه الامارة بالسوء

امَّا الكاهن فلم يلحظ شيئاً من هذا بل أغلق الباب وقال للضيف اجلس يا أخي ونشف ملابسك واصطلِ فاني أراك تضطرب من البرد. ومن حسن الحظ أنك أتيت في الوقت المناسب فقد كنت موشكاً أن أتعشى فما إخالك ترفض مؤاكلتي اذ لا بدَّ أن تكون جوعان

فأومأ الجنديُّ برأسِ ايماء الرضى وعاد يقلِّب كفيه فوق النار فنادى الكاهن: يوسف! يا يوسف!

فأتى صوتٌ من بيت المؤونــة يقول: هاءنذا. ومــا هي الا لحظــة حتى دخل شيخٌ قصــير دحداح فوقف بغتةً وقد رأى الغريب الى جانب سيده

وكان لهذا الخادم سحنة عبوس وأنفٌ ضخم علاه نظارتان مربوطتان بخيط غليظ وراء أذنيه فزاد ذلك في هيئتهِ جفاء. لكنه

كان حاذقاً ذا فراسة اذا ثبت نظره في انسانٍ أدرك ما في باطنه وكان كثير المخاوف على معلمهِ شديد التعلق بهِ . فلمّا رأى الغريب رابهُ أمرهُ فجعل يحدّق بنظّارتيهِ ويتفحصه فلم ترق له سيماؤه فهمس قائلاً: « يا مار يوسف احفظنا » والتفت الى معلمه وقال: من هذا ؟

فاجاب الكاهن: أما ترى ! هو جندي فرنسي

فدمدم الخادم وقال: ربما !

فساء الجنديَّ كلام الخادم فنظر اليهِ وقد احمرَّت عيناه لكنه كظم غيظه وتجلد

اما الكاهن فلم يعبأ بكلام خادمه بل لامه بلطفٍ وقال له: لا تنسَ يا عزيزي الوصية الثامنة من وصايا الله بل ضعها نصب عينيك وهيا فقدم لنا العشاء. فلا بدَّ أن يكون ضيفنا جائعاً

فقال الخادم مغتاظاً: ماذا ! او تشاء ان تأويه ايضاً عندنا

قال الكاهن: نعم ! فعجل في قضاء ما أمرتُ به. فلم يرَ يوسف بدًّا من تلبية الامر

ولمّا مدَّ السماط دعا الكاهن الضيف وقال له: رجوتك أن لا تعبأ بكلام الخادم وأن لا تغتاظ منه فهو مخلص أمين . لكنَّ الشيخوخة صيرته سيء الظن كثير الخوف حتى صار يرى في كل غريب عدوًّا مخيفاً

فاجاب الجندي : أجل ! وظاهره يدلُّ على أنهُ شيخ خرف.
ثم عاد يحتسي الحساء بشراهة ونهم

فقال الكاهن بعد حين : أراك غرثان شديد الجوع فهل تريد من الحساء ايضاً

فلم يرفض الضيف بل أدنى صحنه من الكاهن فملأه له. ولمَّا قُدِّم اللون الثاني شطره وأعطى الضيف أفضل شطريه . فأكبَّ هذا يزدردُ الطعام حتى كأنه لم يأكل منذ أيام

فكان الكاهن ينظرُ اليهِ مسروراً حاسباً أن الضيف قد شرَّفه بجلوسه الى مائدته القشفة

ولمَّا انتهيا من الاكل قال الكاهن . امَّا الان فقد نلت من الراحة فتفضل وقصَّ عليَّ أسباب انفصالك عن المعسكر وداعي مجيئك الى هذه النواحي وقد انتشر فيها الاعداء

فاجاب الضيف ان لذلك سبباً ساذجاً وهو أني بعد موقعة رامبرڤيليه وقعت في يدِ العدوّ فقاسيتُ الاهوال. ثم قيض الله لي الفرج فتملصت من شباكهم . وها قد مرَّ بي ثلاثة ايام وأنا طريد خائف أن يعثروا عليَّ

قال الكاهن. والآن تودُّ اللحاق بكتيبتك

قال : هذا لا بدَّ منه

قال : عوفيت يا صاح واني اراك جندياً باسلاً فما اسمك ؟

قال: اسمي يعقوب لاموسيه

قال الكاهن. اخبيرٌ انت بهذه النواحي ؟

قال: كلاً فاني من باريس

فاجاب الكاهن: نعم ولهجتك تشهد بذلك وها اني اذكر لك اموراً أحسبها تفيدك

قال: تفضل

قال: أتاني ان فرقة من الكتيبة التي أنت منها قد خيمت هذا النهار بضواحي «لانجر» فلا سبيل ان تنضم اليها اذن وتنجو من مكامن الالمانيين الا اذا اخذت طريق «فاڤرني» و«مونتيدي» و«شارمي»

أفهمت لا تنسى هذه الاسماء

قال لست أنساها فقد وُهبت ذاكرةً قوية

فقال الكاهن: وانك تجد في قرية فاڤرني فرقة يقودها القائد جيرار اخي وحسبك ان تطلعه على ما كان لك معي فيتلقاك بكل ترحاب

ثم بدا للكاهن خاطرٌ فقال للجندي ألا يسعك يا اخي ان توصل هذه الرسالة اليه

قال: ولمَ لا ؟ فحاجتك على الرأس والعين

قال الكاهن: ان الامور التي فيهـا هي من الاهمية بمكان.

فلا حاجة اذن الى توصيتك بكتمها وأن تسلمها اليه يداً بيد وها قد ركنت اليك واستوثقت منك

أما الخادم فكان مصغياً اليهما فهمس قائلاً: انك لتخطئ يا معلمي بما تصنع فاني أرى من هذا الجندي جاسوساً ماكراً. فقطب الجندي وبدا الغضب في وجهه فقال للكاهن: قد عيل صبري. فاغتاظ الكاهن من خادمه واشار اليه ان ينصرف ثم التفت الى الجندي يطيب خاطره ويستعطفه ثم استودعه الرسالة وقال له: رجائي انها تصل الى صاحبها صحيحة سالمة. واني اتقاء لكل مكروه اطلعك على ما تتضمن فلربما دعت الحال الى تمزيقها او حدث ان اضعتها فاليك صورتها:

اخي العزيز

قد زحفت كتيبة من الالمانيين يقودها شارل فردليك وخيمت هذا المساء بغابة الدردار فرأيت ان ارسل اليك هذه الرسالة مع جندي امين يسعى ان يلحق بكتيبته اخوك

وكان الجندي يسمع تلاوة الرسالة وهو لا يكاد يملك النفس فرحاً. لكنَّ باطنه لم يخفَ على نظر الخادم وقد وقف بعيداً يحدّد النظر اليه ونظارتاه تهتزان غضباً وسخطاً

اما الكاهن فلم يرتب في شيء. بل اعطاه الرسالة ورافقه الى خارج الدار ليدله على الطريق

فتبعهما الخادم من خلف فالتفت اليه الكاهن وقال : حسبك يا يوسف ! عد الى عملك !

فعاد المسكين وهو يحرق الأُرَّم لائماً معلّمه على فرط صفاء نيته . وبعد ان هداه الى الطريق قال الجندي : الم تكن يا ابتِ عند العشية في تلك الغابة التي ذكرتها لي منذ قليل

قال نعم : وهي غابـة الدردار عينها . لكني انصحك ان لا تغرر بنفسك فتسلكها فانَّ فيهـا العدوّ فضلاً عن انهـا ليست بطريقك

فضحك الجندي سرًا وسارا

ولما بلغا مفرِق الطريق ارشده الكاهن الى السبيـل وكرّر عليهِ الوصية ثم ودّعه وقفل راجعاً الى داره

فأخذ الجندي الطريق التي هداه الكاهن اليها . لكنه مـا أمنَ الرقيب حتى اتجه الى الغابة وسار وهو يناجي النفس ويقول : لا شك ان هذه الخدمـة تملأ شارل فردليك فرحاً . ومهما تكن فظاظته فلا بدّ ان يكافئني بمـا وقع الاتفاق عليهِ . وراح يهنئ نفسه ويغبطها بما سوف يجني من الخيانة

***

ولما اقترب من معسكر العـدوّ ابتدره الحارس منادياً : من الرجل !

فلم يقلق الخائن للجواب اذ كان يعرف كلمــة التعارف فأجاب «غار الظفر»

فقال الحارس: أقبل!

فدنا يعقوب واخرج من جيبهِ وساماً اراه للحارس ومرَّ حتى بلغ مضرب القائد فردليك

وكان فردليك كهلاً في نحو الاربعــين من سنه ذا عينين سجراوين ووجه ذميم طبع فيه الخبث والدهاء

فلمَّا راى يعقوب مقبلاً انتصب واقفاً وقال: مــا وراءك يا لامرسيه

فاجاب: وراءي خبر لك فيــهِ فائدة ومسرة. لكني لستُ اطلعك عليهِ حتى تريني مبلغ كرمك

قال: قل ولك عليهِ ما يستحق

قال: اريد الفي فرنك

فانقبض القائد لكلام يعقوب وقال ساخطاً: لقــد البست لهجتك نغمة السيد المطاع. افما تدري انَّ لفظة اريد لا تخرج الا من فم ذي الشوكة والسلطة. فكأني بك تجهــل من تخاطب او فاتك اني لو شئت لجعلتك الآن لحراب الجنود طعاماً

فهلع قلب يعقوب فغضَّ من صوته وقال كما تشاء يامولاي. فواصــل القائد الكلام وقال: وان كنت على ريب فيما أقول

فقل ! . . . وإخالك لم تنسَ انك لولا فضلي لكنت الان رهين السلاسل والقيود

فقال يعقوب بصوتٍ خائف: لا. لم اكن لأنسى فضل مولاي. وها قد عدلتُ عن الالحاف والالحاح فدعنا من ذلك

فقال القائد: لا لستُ ادعك! اذ قد يخلق بالمرء ان يذكر حيناً بعد حين ما يجدي ذكره نفعاً. فاذكر يوم حملك الهرب بل قل يوم ادّى بك الغرور انت ورفقاؤك فالقيتم بنفوسكم في مكمن كان جنودنا فيه كامنين فقادوك واياهم اليَّ

وإخالني عرفتُ لاول نظرة ما انطويت عليه من الفشل والجبن فلم اكد اسمع لهجتك حتى قلت: لم تخطئ فراستي: إنّ هذا ألا من المغفلين الذين ليس تحتهم طائل. وإنّ ضواحي باريس لتخصب بامثال هؤلاء الاغرار

فقال يعقوب: حسبي يا مولاي حسبي. فاذا ظننتَ اني جئت انشد عندك الأهانة . .

فقاطعهُ فردليك وقال: لا لا احسب الاهانة ضالتك. لكنَّ تلك النغمة التي البستها لهجتك جرّت عليك هذا

اما الان فما لنا ولذلك فلنغلق هذا الباب. فانك لم ترد ان تكون كسائر رفقائك الأُلى استدعاهم السجن الى المانيا وأحلهم باعماق جوفه. بل انك عقلت ورأيت ان الاصلح لك ان تكون لنا

يداً على قومك وعيناً

وقد وعدناك قبل ذلك بمكافأة مالية

فهتف الباريسي: لقد اصبت. واني قد طلبت الفي فرنك ليس غير وما ذلك في جانب ما أطلعك عليه بكثير

قال: ما هو سرك؟

قال: اتاني ان كاهن ليكسيل يسعى في استئصال شأفتكم وقد حاول ان يعلم القائد جيرار بوصولكم

فصاح القائد: ما تقول!

قال: أقول ما تأكدته بنفسي

قال: أيدُ قولك

قال: لبيك. ولكن عدني بتأدية المبلغ المتفق عليه فاثبت لك قولي بدليل لا يُرد

فاغتاظ القائد لالحاح الفرنسي. لكنهُ تجلد وقال: رضيت. ولكن ويلاً لك اذا كنت تهذي وويحاً

ثم اخرج من محفظتهِ ورقتين كل ورقة منها بالف فرنك واعطاهما الخائن فتلقفها اللئيم وجعلها في بطانة معطفه ثم نزع قلنسوته واخرج منها الرسالة

فاخذها فرديليك وفضها وما اطلع عليها حتى استشاط غضباً وقال: كيف توصلت الى هذه الرسالة الخطيرة

قال: لم يكلفني الامر أقل عناء. فان الكاهن كاتب الرسالة هو اخو القائد جيرار وان هذا القائد مخيم بجوار فاڤرني فكلفت بايصالها اليه

فهتف فردليك: نعم المكلف وحبذا الرسول! ولكن اما عندك غير ذلك مما يهمني الاطلاع عليه

قال: لا

قال: حسن. وها اني اطلقك واخلي سبيلك. لكني اطلب اليك ان تلحق بكتيبتك فتنضم اليها وتعود تطلعني على حركاتها وسكناتها فعلى الطائر الميمون

فودع الخائن القائد ورحل

فعاد فردليك الى الرسالة يقرأها وهو يتلهب غيظاً ثم قال: لو وصلت هذه الرسالة الى صاحبها لزحف الينا بخيله ورَجله وفاجأنا ونحن في هذه الخلوات آمنون فاباد ذكرنا ومزّقنا شرّ ممزق... وكل ذلك من دهاء ذاك الكاهن المشؤوم. ولكن لينعم بالاً فاسوف يرى عاقبة المكر ويجني ثمرة الخيانة

...

وسار الخائن والسرور يرنّح عطفيه حتى بلغ احدى الغابات المجاورة فسمع ضجيجاً من بعيد فتوقف حذراً ونشر اذنيه ليلتقط

الجبر . فلم يسمع شيئاً فقال : ما هذا الا حيوان سمع وطء قدميَّ فولى مذعوراً

ثم واصل السير وهو يقول : ما كان الخوف ينالني حين كان جيبي فارغاً اما الان فبعد أن حشوته مالاً صرتُ اجزع من كل شيء .

وانهُ ليقول ذلك اذ نزلت برقبتهِ صفعة ضعضعت صوابه فصرخ صرخة عظيمة واستلقى على قفاه . . .

ولما عاد اليه الرشد رأى جسمه وقد ترضض وتهشم . وأحس بألم في رقبته شديد . فأمرَّ يده عليها واذا هنالك جرح واسع والدم منهُ يسيل

فحاول النهوض ففاجأتهُ رعشة ارجفتهُ . وهبت ريح صرصر جمدت الدم في عروقهِ ففتح عينيه وصرخ : الثلج ! الثلج ! . .

وكان الثلج قد تحدَّر زمان غشيان الخائن بغزارة حتى كاد يغمره ويكفنهُ فحاول النهوض مراراً فلم يستطعهُ الا بعد الجهد .

فأسند ظهره الى جذع شجرة وصار يتفقد اعضاءه ويجسها فوجدها سليمة . ولولا جرح رقبته لكان في حالة راضية

ولما استراح قليلاً ذكر الورقتين فضرب جيبه فاذا هو مقلوب فارغ فصاح صياح الخيبة واندفع يجدف ويلعن

ثم عقب الغضب يأس شديد فهتف : واخيبة الامل واضياع التعب آه ان هذا لم يخطر لي ببال . لقد فقدت ثمرة سعيي فلم تُجدني

الخيانة نفعاً. قبحاً لحظي ما اشقاه وأفٍ لنصيبي مـا أرداه. ثم بدا له خاطر جديـد فتعزى وقال: ان دواعي الربح في المهنـة التي ازاولها لكثيرة متعددة. فلست البث ان استعيض ما سلبنيه اللصوص فعليَّ الآن ان اسعى في لقاء مأوى آوي اليه فاستريح فيه بقية ليلي ثم افكر في استنباط الوسائل واحتيال الحيل

فتشجع وتشدد واستأنف المسير فما مشى خطوتين حتى ابصر من خلال الاشجار الجرداء وميض نور

فقال: عجباً ما هذا النور. أوَ سدل الثلج على بصري سجاف العمى فضللت السبيل. فان الطريق التي سلكتها بعيدة عن البيوت ولكن لا بأس في ذلك فعليَّ ان اقصد هذا النور لارى مـا يكون من أمره

وما كان الباريسي بعيـداً عن ذلك البيت المنفرد الـذي بدا منه النور سوى مائة خطوة. لكن التعب كان قد اضعف قواه فشعر كأن قـد انثنت ركبتاه ثم اخذتـهُ رعشة شديدة فخرَّ صريعاً

فلم يرَ مخلصاً من ذلك الا ان ينادي ويستغيث

لكنَّ صوته الضعيف لم يكن ليسمع مع هبوب الرياح العاصفة فصار يجر نفسه ويزحف على الثلوج مستعيناً بيديـه ورجليه حتى خارت قواه واسترخت اعضاؤه فتمدد على الحضيض ونادى بصوت

خانو: اليَّ يا آل المروءة! اليَّ!...

ولما استفاق بعد ساعة شعر ان قد عاد اليهِ بعض قواه، وأحس بحرارة منعشة تسري في اعضائهِ ويد صالحة تفرك اطوافه فانتعش وفتح عينيه فاذا امامه شبح اسود فاغتمّ وقال في نفسهِ

قبحاً للكهنـة فاني حيث حلت اراني ازاء هؤلاء الغربان السود

لكنْ اضطرابه ما عتّم ان ازداد وقد رأى في هـذا الغراب الاسحم كاهن ليكسيل بعينهِ

فكأن العناية دبرت ان يتيه الخائن في تلك الغابـة وان يقع في ايدي اللصوص فلا يخلصهُ من مخالب الموت الا الذي كان قـد سعى هو في اهلاكه

فاما الكاهن الصالح فعزا اضطراب الجريح الى شدة البرد فقال لهُ:

نم ياعزيزي نم وخذ لنفسك راحة ثم تقص عليَّ جميع ما جرى

وبينا هو يقول ذلك اذ سمع جلبة وجري خيل تعدو مسرعة فانذهل الكاهن واسرع الى الشباك ليعلم ما الخبر...

فرأى ثُلة من الجند اقبلوا ينهبون الارض نهباً

وما هو غير قليل حتى بلغت لهجتهم اذنيه فامتقع وجههُ وقد

علم انهم رُوّاد الاعداء. وهم ذوو القلوب القاسية لا يحترمون النساء ولا الشيوخ ولا يبقون على الاحداث ولا يمسكون عن الجرحى

فذكر رعيته وما سيتزل ببنيه فاتقدت فيهِ نار الحمية فعزم ان يضحي بنفسهِ في سبيل نجاتهم

لكنهُ رأى ان يسرع قبل كل امر الى الضيف الجريح فيواريه من اعين العدو. وفيما هو يفكر ذكر نفقاً تركهُ لهُ الكاهن سابقه وكان هذا يتوارى فيهِ ايام الفتنة فاسرع ونادى الخادم

وكان الخيالة قد بلغوا الفناء. فنزلوا عن خيولهم ودنا زعيمهم من باب الدار وقرعهُ بمقبض سيفهِ ونادى

افتحوا ! افتحوا !

فتعجل الكاهن وخادمه نقل الجريح وجعلاه في ذاك النفق السري واغلقا الباب بكل سكينة

فكان الالمانيون خارجاً يبرقون ويرعدون وهم يتهددون ان يحطموا الباب

فنادى الكاهن : ادخلوا ! واسرع ففتح

فدخلوا وهم يصيحون ويصخبون ويقذفون من الشتائم ما ارتجَّ لهُ المكان

فقال لهم الكاهن : من تطلبون وما تريدون ؟

فنظر اليهِ الزعيم وهو فرديلك نفسه نظرة الغضب ثم التفت

الى الجنود وقال: اقبضوا على كل من في الدار وابحثوا حتى في اعمق الزوايا

فانتصب الكاهن وقال بعزيمة وسلطان: اني احتجُّ على انتهاك حرمة بيتي

فضحك الزعيم وقـال: سوف تحتج فيما بعـد واما الان فانت أسيري

فهتف الكاهن وقد اخذه الانذهال. أسيرك!

وصاح الخادم: تأسرون معلمي!.. فاي شر صنع!

فالتفت اليهِ فردليك فرأى منهُ شيخاً هرماً فقال لهُ اصمت فهذا لا يعنيك واشار الى الجنود ان قيدوا هذا الشيخ الخرف

لكنَّ القبض على يوسف لم يكن امرًا سهـلًا ولاسيما وقد هبَّ يقاوم بكل قواه فدنا منهُ الزعيم وجعل يلكمهُ

فغضب الكاهن وصاح: اليكم عن الخادم! لا تمسوه باذى!

فقال الزعيم هازئاً: لم تعد السيد المطلق في دارك. فخفض من صوتك واذا كنت لا ترضى الا بالعفو عنـهُ فلك ذلك اذ ليس الخادم غرضنا

فقال الكاهن: ومن يكون غرضكم؟ فلعلهُ انا

فاجاب الزعيم: انت قلت

قال الكاهن: وما السبب؟

قال الزعيم: لا سبب سوى انك انذرت او حاولت أن تنذر الجنود المخيمة بفاقرني وتنبئهم أنّا نزلنا بغابة الدردار

وكان الخادم ينصت الى كلام الزعيم فادرك الخيانة وانجلى له الامر فقال في نفسه: آه قد صدقت فراستي في ذاك الضيف اللئيم وزال الشك باليقين فما الخائن الّا هو هو بعينه

وقال الزعيم للكاهن: هل سرّك الخبر؟

فلم يجب الكاهن وقد تولاه العجب من اطلاع شاكيه على الامر فلبث متحيراً

فقال الزعيم: لا تحاول الانكار فان في يدي شاهداً عليك لا يُرد. قال هذا وابرز الرسالة وادناها من عيني الكاهن قائلاً: هاك اقرأ!

فنظر الكاهن الى الورقة فاضطرب وقد رأى فيها خطه وقال في نفسهِ: كيف وصلت رسالتي الى يد العدو. ومع ذلك لم يخالجهُ ريب في امانة الجندي الذي انقذه من الموت

فايقظهُ الزعيم من حيرتهِ وقال: دع التفكر والتبصر وأقر بجريمتك

فدبت الحمية إذ ذاك في صدر الكاهن فتصلّب تصلّب المحقّ وقال: أجل انا هو كاتب الرسالة! وانما دفعني الى ذلك حب الوطن وعزة الفرنسيس

فاجاب الزعيم: ان الواجب يقضي عليك بالتجنب وانت خادم

النفوس ليس غير فهل تجنبت ؟.. لا لعمري !فان كتيبة القائد جيار تتعقبنا منذ ايام وتسد المخارم في وجوهنا. ولولا انك تترصد حركاتنا من على قبة الكنيسة وتبادر قومك بالانباء لكنا ظهرنا عليهم منذ ايام

واحسبك لا تجهل الشرائع الحربية وهي صريحة بينة فقد غررت اذن بنفسك وجنيت عليها فاستعد للقاء المنون

واذ ذاك رجع الجنود ولم يجدوا شيئاً

فقال فردليك: أو لم تعثروا على احد ؟

فاجابوا: لا يا مولانا ولقد تقصينا في البحث والتنقيب

فقال: حسبكم حسبكم والتفت الى الكاهن يقول: لم نغش بيتك ونفتشهُ للتفكه برؤية ما فيه. بل كان الغرض البحث عن جندي فرنسي جُرح في غابة الدردار وحمل نفسه الى هنا. فاصدقني الخبر فان نقط الدم التي اراها على هذا السرير تدل ان الجندي هنا

فلم يجب الكاهن بشيء

فقال فردليك. قلت لك لا تحاول الانكار. فاني ناصحك ان تطلعني على حقيقة الامر فان الشواهد ناطقة بانهُ هنا. وكأني بك قد فوجئت بوصولنا ولم تكن تتوقعهُ فتركت نقط الدم فوق السرير وهي لا تزال طرية. ولقد ادركت الان سبب تعوقك عن فتح الباب فانتظرنا ما انتظرنا

فسارق الكاهن النظر الى آثار الدم فايقن بحاول الاجل وانغلاق باب الامل وأنى له ان يتملص منهم ! ابالصمت؟ فالصمت يزيد في هياجهم . ام بان يدفع الجريح اليهم ؟ . . ولكن هل يجد من قلبه ان يدفع ابن وطنه الى الد اعدائه ويسلم جندياً فرنساوياً الى الالمانيين اخصامه ! . . لا ! لا ! . . المنايا ولا الدنايا ! . .

فصاح فردليك : لقد ضاق صدري ونفد صبري ! . . فهيا اجبني والا ! . . .

فانتصب الكاهن عند هذا التهديد وقال : خفّض من غلوائك يا صاح ونهنه من غربك . فليس الخوف من شأن النفوس الابية ولم تكن شقشقة لسانك لترهبني او تقسرني على نشر ما اريد طيه . اما مخبأي فهو وفيّ لم يعتد خفر الذمم وعار على رجل الدين ان يُلفى لئيماً فينتقض عهد من قد اجاره ولو حدث ان كان المجار لئيماً

فصرف فردليك بانيابه وقال : والان ألا ترعوي عن غيك ؟ . .

قال الكاهن : كلا ! . . .

فانتهره فردليك اذ ذاك وصاح : والله لا يطلعنّ صبح الغد عليك حتى تُنصب هدفاً لنيران الجنود . واعلم ان اصرارك لا ينقذ مَن اجرت ولا يجديه نفعاً فاني آمر جنودي ان يحيطوا بدارك فلا يبرحون مكانهم او يهلك مُجارك جوعاً

ودخل الخادم عند ذلك وقال : لا حاجة الى كل هذا التحوط

ايها الزعيم . فحسبك أن تقول لي : أمتاكد أنت ان الجندي عندنا ؟ . .

قال : نعم نعم ! . .

فابتدر الكاهن خادمهُ وقال : اسكت ! اصمت ! . . .

فاجاب الخادم : وانا اقول لك : اسكت اصمت ! . . فلم يكن ربك ليرضى بقتل بريء في نذلٍ خائن ! . .

قال هذا وقصد المخبأ وأدار لولباً خفياً فانفتح باب سرّي فظهر الخائن من ورائه

فقال الخادم للزعيم : ذلك هو الرجل ! . .

فاسرع فردليك فرأى جاسوسه منكس الراس وقد لبس الخزي والعار

فكان لذلك المشهد في قلب الكاهن تأثير شديد

وكانت ضمادة الجرح قد انحلت ولم يقوَ التعيس على اعادتها فجعل دمه ينزف . فما فتح الخادم باب المخبأ حتى كانت قوى الجريح قد خارت فخرّ لوجههِ وصاح صياح الجزع . . .

فاسرع الكاهن اليهِ وانحنى يضمد الجرح رغماً عن ممانعة الخادم فاندهل الجريح لشهامة الكاهن وكاد يكذب عينيه . وبلغ منهُ التأثر ان فاضت الدموع من عينيه وقال في نفسه :

حقا ان شهامة هذا الكاهن لما يفوق الطبع . فانهُ لم يقابل خيانتي الا بالخير والمعروف . فقد اجارني ثم انتشلني من الموت وهو الان مع اطلاعهِ على امر خيانتي يسرع الى انقاذي بدلاً من ان يغتنم هذه الفرصة فينتقم لنفسهِ ويلقي الخائن بين مخالب العدو

فليس جميع الكهنة اذن بلداء ولا هم ثرثارون متفيهقون كما كنت اسمع بل هم اصحاب الحمية والفضل يضحون بحياتهم في سبيل غيرهم

وهذا الكاهن الذي آثر الوقوع في يد العدو ولقاء الموت على ان ينقض عهد رجل خائن وعما قليل ستنصبُّ عليهِ نيران الجنود او تمزقهُ رؤوس حرابهم هذا الكاهن قد كشف عن ضلالي وكذّب ما يتشدق بهِ المتشدقون ...

...

ولم يكن غير قليل حتى اقبلت وفود الصباح وانتشر جناح الضوء

فدنا فردليك من الكاهن وجذبهُ اليهِ قائلاً : لقد جاءت ساعتك وحان حينك فهياً أرنا بأسك في لقاء المنون

أمّا الخادم فما تأكد عزم الزعيم وسمع منهُ ما سمع حتى ثارت الحمية الفرنساوية في صدره فهجم على الجنود وقد

قبضوا على سيده وصاح بهم: وراءكم يا اشباه الرجال !.. فلن يمسّ مولاي أذى وفيَّ حياة !!!...

وان الخادم ليدافع عن معلمه واذا طلق نار دوى وصوت يصيح: السلاح! البدار!!..

فذعر الالمانيون ذعراً ونظروا فاذا الفرنساويون قد اطبقوا عليهم فحلَّ بهم الفشل فبدروا الى خيولهم وولوا عليها مدبرين

فهاج هياج فردليك وصاح بهم فلم يلووا عليه. فارغى وازبد وجدَّف ولم يرضَ الهرب بل سلَّ مسدسه وهجم به على الكاهن الشيخ وسدَّده اليه

لكنَّ الجريح كان قد رأى ما رأى فانسلَّ خفيةً وحمل نفسه الى جانب الكاهن فلم يطلق الظلوم حديدة المسدس حتى كان الجريح قد اسرع وحال دون الكاهن فاصابه طلق النار فخرَّ صريعاً

وحاول فردليك اطلاق النار ثانيةً ففاجأته رصاصة فرنسية فلقت رأسه. فضرب الهواء بيديه وسقط قتيلاً

وكانت تلك الرصاصة من مسدَّس جيرار البطل. فان بعض القرويين كانوا قد طاروا اليه واطلعوه على الخطر المحدق بهم فاسرع بجنوده لنجاتهم وإنقاذ اخيه. وهتف الفرنساويون هتاف

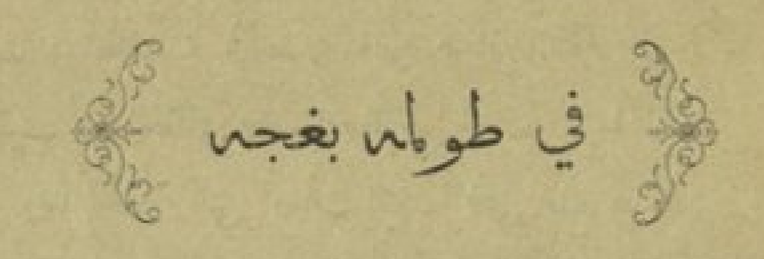
الظفر ووثب جيرار الى داخل الدار يهنئ اخاه بالنجاة

وهكذا نجا رجل الوطن والدين من مخالب الموت بفضل الله وحماية البطل اخيهِ. وليس من ينكر فضل الجريح التعيس فانهُ حال دون الكاهن وضحى بحياتهِ وغسل خيانته بدمهِ

فدنا الكاهن منهُ وبسط لهُ يده فصافحها الجريح مصافحة التوبة والشكر

واذ كان الكاهن يلفظ الحلة السرّية فتح المسكين شفتيهِ وقال وهو يجود بروحهِ: عفواً رباه !.. صفحاً !..




في طولمه بغچه

في طولمه بغجه (١)

اليكم أزفُّ اليوم خبر الحادثة الهائلة التي كلكم يتوق الى كشف الستار عن دواعيها ويشتاق الوقوف على أسبابها والسواد الاعظم فيما اظن لا يعرف كيف جرت ولا لمَ جرت. ومن العار أن يجهل الأدباء تاريخ أكبر حادثة وقعت في قاعدة المملكة ونزلت بسلطانها في عصرٍ أخصّ صفاتهِ التنقير عن الاسباب والتنقيب عن الحقائق وهذه الصفة هي شعاره وسمة لوائه

واما الحادثة التي اومأتُ اليها فهي خلع عبد العزيز ومقتله وقد كان انطلاق اللسان بذكرها ايام حبس الالسنة والاقلام مما يسوق الحين ويحفر القبر. ولذلك استمرَّ مستترًا تحت ذيل الرهبة حتى طلع ضياء الدستور فهتك حجاب الاستبداد الذي كان مسدولًا على الفظائع والمنكرات

وقد رأيتُ تلخيص هذا الحادث من المواضع التي يترتب على نشرها فائدة لمن يحكّم عقله فيما يقرأ أو يسمع ويأخذ لنفسه نتيجة نافعة فأقول:

---

(١) قصر عبد العزيز

كانت المملكة العثمانية أواخر ايام عبد العزيز قد هبطت من قمة المجد الى قعر الهوان لأمورٍ كادت تدخلها في حشرجة الموت

واول تلك الامور انه لما اتقدت نارُ الثورة في الروم ايلي والهرسك والصرب والجبل الاسود وكريت ونهضت هذه الولايات في طلب الاستقلال والخروج عن سلطة الدولة العلية وذلك بما دسه الروس فيها كان عبد العزيز منقاداً لآراء محمود نديم باشا الذي كان اغناتيف سفير روسية في قاعدة المملكة قد استرقّه بالدرهم والدينار وتذرع بنفوذه لتحقيق اماني الروس بعزل الأكفاء المحنكين والرجال الحكماء من مأموري الملكية والجندية الذين شهدت لهم الاعمال بالحنكة والاخلاص وبنفي كثيرٍ منهم واستبدالهم بالاغرار الماذقين ممن لا يفهمون للوفاء معنى ولا يعرفون الى حفظ الذمة سبيلاً. حتى صارت الدولة بعد ذلك في يد محمود نديم باشا يتصرّف فيها كيف شاء أو كيف شاء اغناتيف

والثاني : نهب بيت المال الذي جرّ الى الدولة الافلاس فأمست رازحة تحت أحمال الديون الثقيلة واضطرت الى الاستدانة. فأبى أربابُ المال من الاجانب أن يقرضوها إلا بضمانات باهظة

كلُّ ذلك وعبد العزيز لاهٍ بحضور العاب الصراع ومقاتلة الديوك وما شاكل

وكان يعتقد انَّ دخل المملكة مختصٌ بهِ لا يحقُّ لاحدٍ أن يناقشه الحساب. فكان يتناول من بيت المال كراتب له خمسة وثلاثين مليون فرنك ناهيك بالاموال التي كان يبذرها في تشييد القصور والبنايات الضخمة وفي امور أُخر مما أربى على الخمسين مليون ليرة وهذا ما لا يكاد يصدق وقوعه

وكان المقرَّبون اليهِ يعملون على خراب البلاد بكل ضروب الجور والاستبداد وما كان يردعهم رادع. وراحوا يكسرون القوانين ويعبثون بحقوق الدولة والوطن

امَّا الذي جاوز الحدَّ فهو تشديد المراقبة على المطبوعات العثمانية وحصر نطاق مباحثها حتى ان اصحاب الاقلام كانوا يرون سوء ادارة الدولة وينظرون الى الهاوية التي تسير اليها وهم لا يتجرأون ان ينبسوا بكلمة فحملت هذه المضايقة بعضهم على المهاجرة الى باريس حيث ألفوا حزب تركيا الفتاة. ومن باريس مدينة الحرية كانوا يسددون نبال اقلامهم الى قاعدة السلطنة فتشقُّ احشاء المستبدين وكانوا بصحفهم الشديدة اللهجة يُطلعون الامة على مساوئ رجال الدولة ويكشفون الغطاء عن معايبهم

فذلك واشباهه أوجب النفرة والاشمئزاز من الحكومة العزيزية

ولكن لما كان الاستبداد مخيماً فوق السلطنة والظلم متربعاً فيها لم يجسر احدٌ على ان يشكو تلك المظالم جهراً او ان يتأفف منها

لكنَّ حسن الحظ لم يسمح بالسلطنة ان تتهوَّد في لجج الاضمحلال بل قيض لها بطلاً رأت فيهِ مخلّصها الوحيد ألا وهو الشهم الطائر الصيت مدحت باشا شهيد الوطن وحب المملكة

فهذا الرجل الكبير تقلب في مناصب الدولة ووقف على دخائل الامور فنظر نظرة الطبيب النطاسي وعرف ان الدواء الوحيد لتلك الادواء انما هو خلع عبد العزيز ونشر القانون الاساسي

وما هذان الشيئان بالامر اليسير فدونهما خرط القتاد فان مسألة الخلع وان تكرّرت في عصر الانكشاريَّة فكانت تُعدُّ عند عامة القوم تفريطاً في حق الخلافة والسلطنة . ومسئلة القانون الاساسي تحسب بدعةً ولا سيا في مملكةٍ لم تسمع بهِ من قبل لان المعارضين المقاومين خوفاً على منافعهم كانوا هم العدد الاكبر

أمَّا مدحت باشا فلم تخفه المصاعب ولا لوت عزيمته المشاغب

بل قام يتدبّر الامور ببصيرة ثاقبة

فرأى من الحكمة ان يعتمد في وضع القانون الاساسي على حزب تركيا الفتاة وهم أصحاب الاقلام السيّالة وكانوا قد اكتسبوا ثقة الامة ومحبتها

واماً في أمر الخلع فرأى ان يراجع العلماء وهم اشدُّ الجميع تأثرًا من هذه الاحوال

فشاد بنايةً معتزلةً خصصها بهذا الشان فكان يدعو اليها خيرة العلماء الواحد بعد الآخر ثم صار يدعوهم جميعاً . ولمّا استوثق منهم أخذ يبثّ فيهم روح الاصلاح ويبسط لهم ما آلت اليه احوال الدولة وأثبت لهم ان ليس للدولة مَخلَصٌ الا في خلع السلطان ووضع القانون الاساسي . وبرهن لهم انّ اصول الشورى لا تضادّ الاحكام الشرعية بل توافقها كل الموافقة

فاقتنع العلماء بذلك واستصوبوا رأيه وعقدوا الخناصر على الجود بالنفائس والنفوس في سبيل المملكة

وكان عددهم يوم ذاك يبلغ الاربعين الفاً

لكنّ مدحت باشا لم يكتفِ باستمالةِ العلماء في امر يُخاف فيه حبوط المسعى بل رأى ايضاً ان يتفق مع حَسيني باشا ناظر الحربية فانّ جميع امراء الجندية تنقاد له وكان له في قلوبهم محبة واجلال

فأتمَّ ذلك بحسن سياسته ثم استمال هو وحسيني باشا سليمان باشا ناظر المدرسة الحربية ثم الصدر الاعظم محمد رشدي باشا . وفي آخر الامر اقنعوا شيخ الاسلام خيرالله افندي فأفتى بخلع السلطان

وهكذا اجتمعت آراء العظماء على ذلك العمل الخطير . فاستحاطوا في الامر وسلكوا في التدبير على ضياء الحكمة حتى ساقوا الخلق الى ذلك الانقلاب العظيم

امَّا عن حالة الاستانة في تلك الايام فلا تسل فانك ما كنت ترى احدًا الا غائصاً في بحر التفكر او واضعاً على خده كفَّ التحير

اما عبد العزيز فكان في تلك الاثناء كما سبق القول منصرفاً الى اللهوِ لا يسأل عن احوال العاصمة ولا يبالي بادارة الدولة والملك . فلم يكن يعلم ان الغيوم المتلبدة فوقه اوشكت ان تمطر عليهِ سحاب الويل والثبور

. . .

كانت ليلة الاثنين من ليالي جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ (ايار ١٨٧٦ م) ليلة حالكة الظلام والرياح تعصف في البسفور فتقيم البحر وتقعده وتقذف بالامواج الى الشاطئ فتزيد بهيجانها اضطراب القلوب

في تلك الليلة الظلماء لم يكن ما ينبئ بحدوث حادثة في قصر «طولمه بغجه» يكون لها في التاريخ شأن كبير

فلم يكن في جوار القصر جلبةٌ ولا حركةٌ والقصر لاهٍ بالطرب والقصف والحراس والخفراء على كامل الأهبة وكل الامور جاريةٌ في مجاريها

ولكن كان في البسفور ثلاث مدرعات غاصة بالجنود وقد تحركت عند الزوال توهم انها زاحفة الى الجبل الاسود لتأديب الثوّار لكنها ما واجهت القصر حتى وقفت ولسان حالها يقول: انّ لي هنا غرضاً !!..

ولو كنّا تلك الساعة امام المدرسة الحربية لرأينا عجلةً وقفت فخرج منها رجلٌ طويل القامة ملتحف برداء ومن حواليه ضابطان دخل غير هيّاب على ناظر المدرسة ورفع رداءه فظهر من تحته ناظر الحربية حسين عوني باشا فاجتمع باشارته اربعة عشر ضابطاً جلسوا على مقاعدهم ثمّ أغلق الباب

فوقف الناظر اذ ذاك ولفظ خطبةً ملؤها الحزن والشكوى وبسط لهم فيها ما عمّ الدولة من البلايا بابعاد أكابر رجالها واستنفاد صناديق اموالها واستيلاء الروس على افكار سلطانها فحمل ذلك العلماء والامراء على الحكم بخلع عبد العزيز. وختم كلامه والدموع تذرف من عينيه وقال: ان الامراء قد القوا على

عواتقنا اثقل عبء في هذه الفاجعة : فهلمَّ يا ابطال الوطن ونخبة الدولـة . بدارِ الى القصر لنؤدي واجباً يوجبه علينـا الوطن والدولة والدين

فهبَّ الابطال جميعاً وهم يغالبون دموع التأثر ونهضوا نهضة الاسود ونفخ في البوق فاستيقظت تلامـذة المدرسة الحربية كلهم وصاح الناظر بهم : البدار ! .. السلاح !! ..

وكان هؤلاء قد اشربوا محبة الحرية فلم يكن نصف ساعة حتى ظهروا مقنّعين بالحديد مدججين بالسلاح . فمشوا بهيئة كتيبة منظمة الى قصر « طوله بغجه » فاحدقوا بهِ من جميع جهاته

واشار ناظر الحربيـة الى سليمان باشا فدخـل هذا وبعض الضباط الى القصر حيث كان مراد وليّ العهـد وطلب مواجهته . فخاف من كان هناك وابى مراد الخروج خيفةَ شركٍ منصوب له

لكنَّ سليمان دخل عليه واخبره بجلوسهِ على العرش وبايعهُ الخلافة بكل صدق واخلاص

فتردّد مراد هنيهةً ولما اطمأنَّ الى ما قالوا خرج فذهبوا بـهِ بـين الفجرين الى نظارة الحربية حيث بايعه ناظرهـا والامراء الخلافة

فسكن بال السلطـان الجديـد وامر فساروا بـهِ الى « الطوبخانة »

اما رديف باشا فكان حين ذاك يحاصر قصر عبد العزيز ويسدّ مخارمه ويتوعد الخفراء باشدّ العقاب ان اتوا بحركة

فاضطرب هؤلاء واذعنوا للامر صاغرين

كل ذلك والقيامة قائمة وعبد العزيز نائم في فراشهِ فلم يستفق الا عند دوي المدافع فهب مضطرباً وأخذ يعدّ الطلقات فاذا بها قد جاوزت العدد المختص بالحريق فصاح مذعوراً: انها لمدافع الجلوس !! . . .

وعند ذلك دخل عليه رديف باشا السر عسكر « امير الجيش » وبلّغهُ ان الامة قد خلعتهُ

فاستشاط عبد العزيز غضباً ورام ان يستغيث

فقال لـهُ رديف: التفت الى البحر ترَ البوارج تصوّب الى قصرك المدافع. والى البر ترَ الجيوش تستلُّ المواضي لتنقض عليك اذا ابيت

فارتعدت فرائص عبد العزيز فرقاً واستطير لبه روعاً فسلّم صاغراً

فاخذوه ليلاً الى « طوب قابو » القصر القديم ثم نقلوه الى قصر « جراغان »

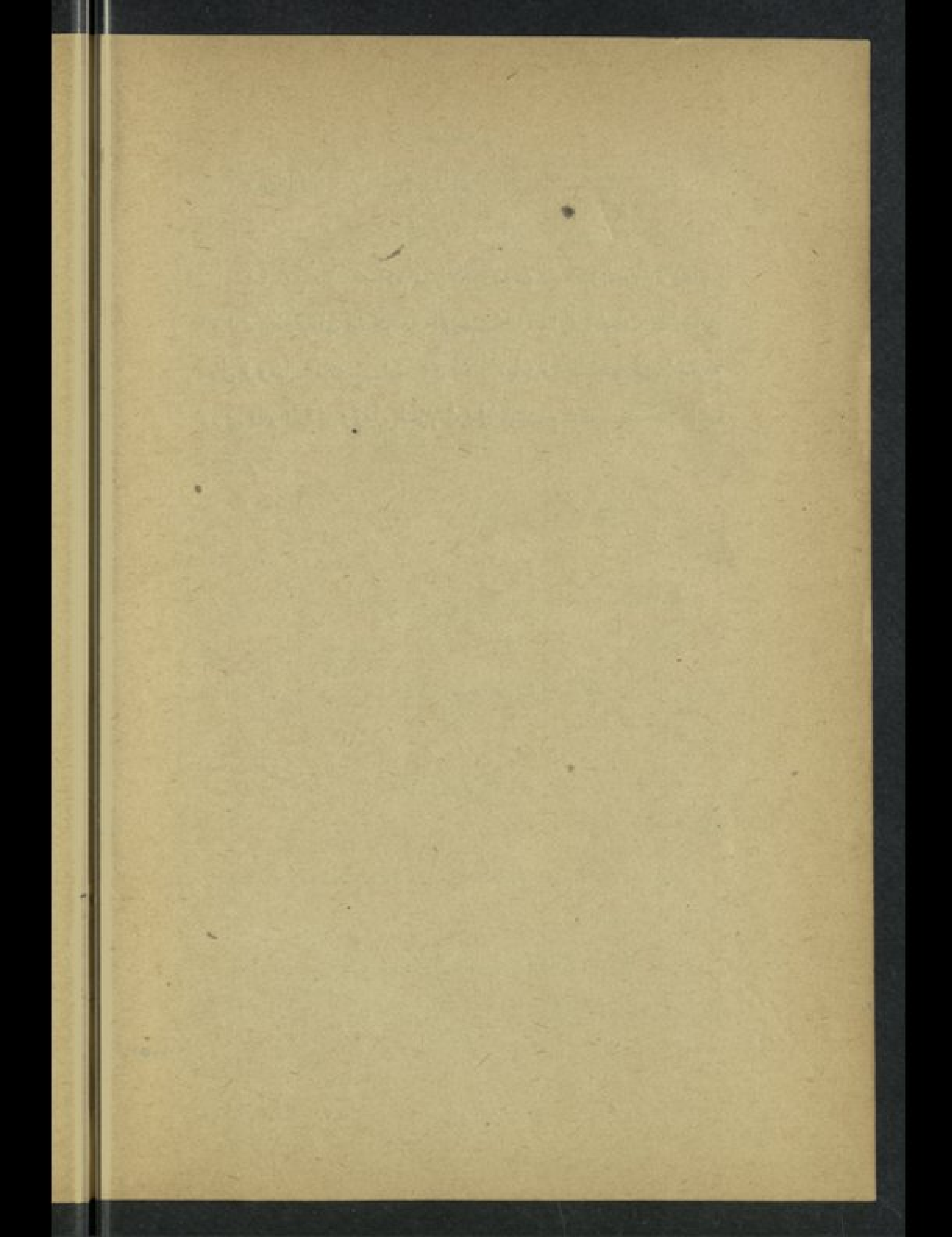
وبعد ثلاثة ايام ادخلوا عليهِ عبيداً فصدوه في ذراعهِ فجعل دمه ينزف حتى قضى نحبه

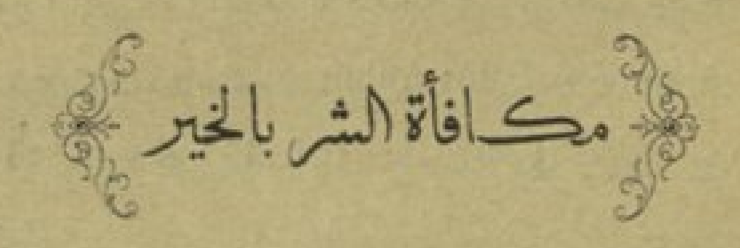
وهكذا انتهت حياة عبد العزيز

...

اما نحن فلا نحكم بما سردناه. وانما نقول: ان لاتباع اللذات وانصراف الفكر عن الواجبات مغبات وخيمات وان لكل حال فروضاً ومقتضيات فمن أخلّ بها وانكفأ عنها فلا يتوقع سوى المام الملمات ونزول النازلات وفي التاريخ عظة للمتفكر وعبرة للمتدبر






مكافأة الشر بالخير

مكافأة الشر بالخير

بينا كنت اتنزّه الطرف في مطالعة كتاب افرنجي العبارة عنوانه « هنا وهناك » وهو من تأليف المنشئ الافرنجي الطائر الصيت والطيب الذكر لويس ڤيلو — صاحب جريدة الاونيفر الحاملة اشهى ثمار الفصاحة الافرنجية — اذ وقعتُ على خبر حادثة نادرة جرت في دير سنتوبان Saint Aubin يؤخذ منهُ خير مثال لمكافأة الشر بالخير فنقلتهُ الى اللسان العربي ليطلع عليهِ القراء الكرام

قال: لما اشتعلت نار الفتنة الفرنساوية استمر رهبان سنتوبان فيهِ فهاجمهم الثوّار ذات ليلة ماطرة وهم مطمئنون فانقضوا عليهم وذبحوهم ذبح الغنم إلّا واحداً منهم كان احدثهم سناً وكانت غرفته في اقصى الممشى فوسعهُ الهرب قبل ان يصل القتلة اليهِ

ولما صار خارج الدير قال في نفسهِ: لا بد أنّ هؤلاء السفّاحين يعثرون عليّ فالخليق بي ان لا اتعب في محاولة الهرب. فجثا على قدميهِ يتوقع وصولهم

ولكن خاب سعي القتلة ولم يهتدوا اليهِ

ولما مضى عليهِ ساعتان احس ببرد شديد فنهض يريد مكاناً يلجأ اليهِ فصادف بيتاً خرباً فتوارى فيهِ .

ولما أمن شر العدو عاد الى الدير

وكان الدير قد بقي منذ تلك الليلة التي هوجم فيها خالياً خاوياً ولم يجسر احد على الدنو منهُ

فلما دخلهُ الراهب رأى بقايا اخوانهِ الرهبان مبعثرة في الامكنة التي تُركوا فيها صرعى . فدفنها باحترام وعاد الى حياتهِ النسكية فعاش كذلك اعواماً طوالاً وكان قد انضم اليهِ بعض الخدام فكانوا يحرثون جوار الدير ويحافظون على ما تبقى من املاكه

وكان الراهب المذكور كثير التحفظ شديد الغيرة على تلك الاملاك يتصدى لمن اتى يصطاد في غاباتها

وكان لا يبرح عبوساً كئيباً وقلما شوهد متكلماً او باسماً كانْ ذكر ما نزل برفقانه كان يتجدد في قلبه ويتمثل لعينيه

ففي ذات ليلة طرق باب الدير مسافران فاجأتهما العاصفة وباغتهما المطر ففُتح الباب وخفَّ الراهب الى استقبالهما وإعداد ما توجبهُ عليه حقوق الضيافة

وكان أحدُ المسافرين شيخاً كريه المنظر جافي الهيئة والآخر شاباً في مقتبل العمر وهو ابن الشيخ المذكور

فبعد أن اصطليا بنار أضرمهـا الراهبُ لهما وأكلا وشربا أشار الأب الى ابنهِ أن يتهيأ لاستئناف المسير لكنَّ الريح هبت تعصف من جديد. فدعاهما الراهب الى ان يبيتا عنـده وألحَّ في ذلك. وهذا ما كان يرومـه الشاب فهمس الى ابيـهِ: أنْ كنت تخشى ان لا نُقبل ولقد قرعت الباب دون رأيك

فاجاب الاب: نعم واني لاشكر معروفَ هذا الراهب واحمد قراه على اني لستُ احبُّ ان ابيت ليلتي هنا

وكان قلقه يزداد حتى بدا كانهُ يتفلّتُ من ايدي تذكاراتٍ قديمةٍ فعصاه الكلام وخرج الحديثُ عن طاعته

اما الراهبُ فلحظ ارتباكه فقال له: يا صاح لا تستثقـل مبيتك عندنا ولا تكُ من ذلك في ضيق. فانَّ جميع الحُجر فارغة بفضل الفتنـة التي جعلت ديرنا خالياً خاوياً..

فقاطعه الشيخ وقال: نعم نعم وقد اتاني ذلك... لكن الريح قد سكنت فصار يسعنا ان نسير..

ولكن ما اتمَّ كلامـه حتى عصفت الريح عصفاً وقصف الرعد قصفاً فاهتزَّ المكان واخذ الشيخَ الاضطراب

فكان الراهب يعجب لتمنع الشيخ وشديد اضطرابه فاخذ يجدّد النظر اليه..

فقال الابن لابيهِ: سمعك يا ابي الى الرياح والرعود فما كان

اشدّ كربنا لو واصلنا المسير

فتوقف الاب هنيهةً ثم قال : اي ساعة الان ؟ قال وأخرج ساعته بدون انتباه . ولكن ما وقعت عين الراهب عليها حتى مدّ يده وتناولها من يدِ الشيخ وانعم النظر فيها فاذا هي ساعته التي تركها في حجرته ليلةَ هربهِ من وجهِ القتلة فسكت ولم ينبس بكلمة بل اعادها الى الرجل والتفت الى الشاب وقال له : نم هنا يا عزيزي وخذ في هذه الحجرة راحتك فهي لآخر راهب من رهبان هذا الدير . ثم التفت الى الاب وقال : اتبعني الى حجرةٍ اخرى اظنها تكون ادعى لراحتك واطمئنانك

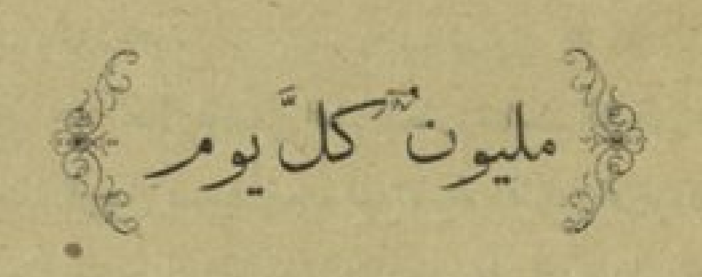
وكان صوته مملوءًا رزانة وهيبة حتى لم يسع الشيخ الا الانقياد

فتبع الراهبَ حتى بلغا الى طرفِ المشى امام الحجرة التي لجأ الراهب اليها ليلة المذبحة فوقف هذا الى جانب الباب وقال للشيخ : هنا يسعك يا صاح ان تتمتع بملء الراحة فلا يخامرك في هذه الغرفة خوف ولا يزورك اضطراب . . . . لانه . . لم يسفك فيها دم ! . . .

فوقع هذا الكلام على الشيخ وقوع الصاعقة فخرَّ على قدمي الراهب خجلًا وخوفاً

فباركه الراهب قائلًا : نمْ يا اخي نم بأمان ! . .

وتركه ومضى لشأنه . . . .


مليونٌ كلَّ يوم

مليونٌ كلَّ يوم

كلما آبَ فصل الصيف طرأتْ دولة الحر قاضيــة على امارة الربيع بالاضمحلال حاكمة على النسيم البليل بالسجن او بالزوال فيلجأ ذوو اليسر الى الجبال ويتعجلون الهرب قبل هجوم وغرة تموز وومد ليالي آب. فترتدُّ الديار مقفرة خالية بعد ان كانت بشمــل الاحباب عامرة آهلة

ففي احد آصال تموز من العام المنصرم كانت الشمس قبل ان تشد رحلها للرحيل تسدد أشعتها الى الارض فتلفح الوجوه وتذيب الجلود حتى امتنع المسير في ذلك الاصيل على ابنـاء السبيل فمـا كنت ترى ممن يركبون طريق الشام صاعدين من بيروت الى السواحل القريبة غير عدد قليل وهم ولا يخفى عليك ممن يضطرهم المعاش الى متابعة الاعمال ومواصلة الاشغال ولو تحت لهيب الحرّ. او هواطل المطر ونفح القرّ

فكان ناصيف ذلك الحين متربعـاً الى جانب الطريق قرب « الحازمية » وامامه جثوة من الحجارة يكسرها لتحصيب الطريق. وكان التعب قد اعياه فكان يرفع صاقوره ببطء وتثاقل ويدعهُ يسقط من تلقاء ذاته على الحجر الذي امامه ثم يعود يرفعهُ ويتركهُ

يهوي حتى يُتمّ كسره ثم ينتقل الى كسر غيره

وكان على راسه قبعة مَوْص «قشّ» كبيرة اشتراها من سوق الزجاج بنصف بشلك ليتقي بها حر الشمس. وعلى انفه نظارتان محاطتان بنسيج اسود. وقد ابدى عن ذراعين سودتهما الشمس. وكان مترديـاً بعباءة وسروال فتح فيهما الزمان عدة نوافذ ومنافذ

فكان على تلك الحال كانهُ من اعوان « ڤيلكان » اله النار الذي جاء عنهُ في خرافات اليونان انهُ لا يزال مع « السيكلوب » انصاره يطرقون حديداً على سنادين الجحيم

فكان العرق يتصبب من وجهه وساعديه وهو يتأفف ويتذكر هواء بحمدون قريتـهِ ويتمثل نعيم المصطافين فيهـا حتى صاح: خمسة غروش في اليوم !.. أعمل كل النهار واخبط واشقى واعرق ويحترق جوفي لأنال خمسة غروش !... أفّ لها من عيشـة يفضل فيها الموت على الحياة.. انا اسعى نهـاري لآكل خبزي قفاراً وغيري من الاغنياء يتمتع بنعيم الدنيا ويدفع سطوة الحر بالمرطبات والمثلوجات ! وكم من بخيل تكردست عنده الفلوس حتى قصر عن عدها فراح يواريها في صناديقهِ ويحشو بها جوف خزائنه... آه لو ملكت يدي بعض ما يملك امثال هؤلاء لكنت أريهـم كيف أرقص الفلوس وأحضر العروس

لكني اسعى عبثاً ولا اوشك ان أُحصل خبزي فلست ابرح طول عمري ناصيف الكسَّار او ناصيف « المعتر » ! ! . .

وقد كنَّا نؤمل ان نشر المساواة وتعميم الحرية يحسنان الحال فاذا هي بعدهما النحس والشؤم . فلمَ اكون شقياً تعيساً اقضي الحياة في تكسير الحصى والاغنياء يقضون أيامهم في القصف والملذات .

. . .

وبينا هو يحـدث النفس بذلك اذا بضجيج رجت له الطريق رجاً فرفع ناصيف عينيهِ فرأى سيارة « اوتوموبيل » عظيمة اقبلت تصفر وتدخن وتهدر ولما وصلت اليهِ وقفت امام جثوة الحجارة فنزل منها رجل طويل القامة عليه لباس قاتم ووجههُ مبرقع يبرقع فاحم فلماً رآه ناصيف دمدم وقال في نفسهِ : هذا واحد ممن كنت اود حطم رؤوسهم ! هذا غني نجس ! . .

لكنهُ لم يجسر ان يرفع صاقوره خوفـاً فنظر الى القادم فرأى الشرر يتطاير من عينيه

فغمغم السائق بصوت غليظ وقال : أأنت ناصيف الكسَّار

قال نعم

قال أأنت هو بعينه ؟

قال نعم انا ناصيف الكسار بنفسهِ وبعينهِ . فماذا تريد

قال السائق: أتؤمن بالله؟

قال بل اؤمن بالشيطان لاني اراك!

قال السائق: كنت اطلبك واسأل عنك

قال: تطلبني؟

قال السائق: نعم.. أتذكر عمك جرجس الذي هاجر الى اميركة سنة ١٨٦٥

قال ناصيف: نعم وقد كان عمري حين ذاك خمس سنين وكأني الان اراه امامي كما اراك

فقال السائق: ان عمك جرجس قد مات في مدينة نيويورك منذ ستة اشهر وكان التوفيق قد صحبهُ الى آلسكا فجمع فيها ثروة طائلة وملك جبلين مِن ذهب وقد خلف لك الان جميع ذلك

فاضطرب ناصيف لهذه البشرى حتى لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه

وقال السائق: انت الان يا ناصيف من اغنى أهلِ الارض ودخلك السنوي عظيم هائل قيمته ٣٦٥ مليون فرنك

فصاح ناصيف وهو لا يكاد يصدق: مليون كل يوم!...

أجاب السائق: نعم مليون في كل يوم وقد ترك لك عمك هذا

الميراث واطلق لك حق التصرف بدخلهِ ليس غير اي بثلاثمائة وستين مليوناً مساناةً. وقد كان رحمهُ الله من المشفقين على البشرية الساعين في تخفيف بلاياها فكان في عزمهِ ان يقف كل ثروته على مستشفيات آسيا ومياتمها فصرفتهُ انا عن قصده وقلت لهُ: أهلك قبل كل احد. فقال لي لنفرض انهُ لا يزال أحد بني عمي حياً فكيف تراه يتصرف بهذه التركة اذا اوصيتُ لهُ بها. واني ارى ان مذاهب إنفاقها أشقُّ من طرق اكتسابها

أمَّا انا فلم ازل بهِ على هذا وذاك حتى اقنعتهُ فسلم برأيي. فصارت الى يدك الان يا ناصيف ثروة عمك كلها جمعاء. وقد اشترط عليك شرطاً وهو ان تنفق دخل كل يوم في يومهِ اي مليوناً كاملاً مياومةً لا اكثر ولا اقل. فاسلك اذن على ضياء الحكمة واستحط في الامر واحذر ان يأتي عليك نصف الليل من كل يوم قبل ان تكون قد انفقت المليون كله اجمع ثم تضع لائحة تفصل فيها طرق انفاقهِ. وها قد اخلصت لك النصيحة فانتبه اذن لنفسك واحفل بهذا الشان الخطير

فضحك ناصيف حتى بانت نواجذه وقال:

لست ارى في هذا الشرط الذي ذكرت امرًا معضلاً فهو على حبل ذراعي واسهل عليَّ من تكسير هذه الحجار. فأين المال؟

قال السائق: اما المال فلا تقلق لهُ ولا تكترث به فانا آتيك

كل صباح حيث تكون بمليون اوراقاً مالية او ذهباً . ولكن عليك كما تقدمت وقلت ان تقدم لي في كل يوم قرطاساً تبين فيهِ كيفية انفاق المال في اليوم السابق

فجعل ناصيف يمسح عينيه ليرى أفي يقظة هو ام في منام. فرأى انهُ في يقظة وان الرجل الاسود امامه وقد شاهده يبحث في جيوبهِ حتى اخرج غلافاً كبيرًا ففتحهُ وقال لناصيف : خذ الان مليونَ هذا اليوم . واني ناصحك ان لا تعود الى قريتك فليس لك فيها راحة ولا نصيب . وربما اصابك مواطنوك باذى فان الاغنياء هم ابدًا عرضة للنوازل

فقال ناصيف : الى اين أذهب اذن ؟

قال : تعال معي الى بيروت فلست عنها ببعيد . وإنَّ سيارتي لتبلغ بنا اليها باقل من خمس دقائق . وقد فاتني اعلامك ان قد بني فيها قصرٌ لك

فابتهج ناصيف وقال : قصرٌ !

قال : نعم قصر ساذج ولكن في يداك ان تحسنهُ وتجملهُ وتفخمهُ . وقد اقمتُ عليهِ قيماً حاذقاً يمكنك ان تثق به فقد اختبرتهُ وعجمتُ عوده فوجدتهُ اميناً مخلصاً . ثم يسعك ان تكل اليهِ امر اللائحة اذا لقيت فيها مشقة وهو يقدمها لي كل صباح

فتهلل ناصيف فرحاً ورمى بالصاقور طرباً وقال : عشت

يا بشير الخير

فقال الرجل : هيا اذن

فوثب ناصيف الى السيارة وقعد فيها وجلس الرجل من عن شماله والقى على كتفي ناصيف رداء كبيراً . واحكم ناصيفُ وضع نظارتيه فوق انفهِ وانقلب بلحظة سائقاً حاذقاً

وسارت السيارة مسرعة فكانت الاشجار كأنها تفر هاربة عن يمينها وشمالها فكان ذلك عند ناصيف امراً جديداً . هذا والغبار يثور متصاعداً من تحت الدواليب فيرتفع فيقع فوق الاغصان والهواء المجفل يضرب وجه الغني الجديد . وتلك البساتين التي يشاهدها القادم من الحازمية كانت تمثل لعيني ناصيف مروج السعادة التي ستنبسط امامه وفيها من سواقي العزّ الجارية تحت ظلال الهناء ما يثلج الصدور ويُذكر بالنعيم

***

وجازت السيارة بفرن الشباك فحلة راس النبع وواصلت المسير الى ان بلغت ساحة الاتحاد فعطفت الى طريق السور فمرت بالثكنة العسكرية واستمرت سائرة حتى انتهت الى حي راس بيروت باربع دقائق . فوقفت هنالك امام حديقة غنّاء تشرف على شاطئ البحر ففُتح الباب فدخلت بين الاشجار الباسقات والغراس الزاهرات والمياه النافرات صعداً . فاسرع قيم القصر وفتح باب السيارة ومدَّ

يده الى ناصيف ليعينه على النزول

فالتفت ناصيف فلم يرَ لرفيقه اثرًا

فانحنى القيم امام ناصيف انحناء بليغاً وقال: اذا شاء مولاي البيك فليتبعني

فنظر ناصيف الى ما حواليه ليرى الى من يُساق هذا اللقب فلم يرَ احداً فايقن انه يوجه اليه. فتبع القيم صامتاً فصعدا في سلم من رخام بُسطَ عليها بساط عجمي احمر غالي الثمن فكان زغبهُ الناعم ينحني تحت مداس ناصيف « اللطيف »

وجاز الاثنان بهوين او ثلاثة مفروشة بافخر الرياش واثمن الاثاث. فبلغا مقصورة فسيحة حيطانها وارضها مخشبات بخشب احمر لماع. وفي اقصى الغرفة سرير من فضة في اعلاه اربع رمانات من الذهب الخالص

فقال القيم للبيك الجديد: هذه مقصورتكَ يا مولاي

فقال ناصيف: حسن.. دعني الان استريح قليلًا

فقال القيم: امرك يا مولاي. وها اني ماضٍ فارسل الحشم الاول لغرفة سيدي. واذا شاءت سعادته استخدامي في حاجة فليس لمولاي سوى ان يجعل اصبعهُ على هذا الزر الفضي فاطير الى خدمتهِ لاني لا ابرح القصر ابداً قال: وطأطأ راسه وانصرف

فاستلقى البيك على كرسي كبير وعاد يمسح عينيه ليتحقق

الامر. ثم قال: حقاً ان في هذا لعجباً.. منذ حين كنت اكسر الحجارة على طريق الحازمية تحت عين الشمس والان صرت في ابهى القصور. وفي هذا الصباح كان جيبي افرغ من قلب ام موسى والان يكون فيهِ مليون!. هيا نرَ المليون..

واخرج الغلاف الكبير الذي تركهُ لهُ الرجل الاسود وفتحهُ وافرغ ما فيهِ على البساط امامه فاذا اوراق زرقاء بهية لم يرَ مثلها في ما مضى من حياتهِ. وهي في عشر ربطات مشدودات بنسيج احمر وفي كل ربطة مائة ورقة كل واحدة منها بالف فرنك. فحلَّ ناصيف عقدة النسيج وجمل الكل في ربطة واحدة وطفق يرفعها في الهواء ويتلقاها بيديه ويلعب بها ثم يلقيها على الارض فيلمها ويطويها باعتناء...

وكان الى يمينهِ خزانة من حديد فجعل كنزه فيها واغلق بابها ووضع المفتاح في جيبهِ

ثم وقف يتفرج على ما في الغرفة من الامتعة النفيسة

فكان ينتقل من متاع الى آخر بعد ان يقلّب النظر فيهِ طويلًا. فسر غاية السرور حتى خيل اليهِ ان في هذه الافراح سعادة لا نهاية لها

اما السرير فقتنهُ بلمعانهِ وضيائه فدار حوله باجلال وتكريم وقد اوقف نظره ايضاً ما رأى في فرش الحيطان وستارات

النوافذ من رسوم الرجال والحيوانات وغير ذلك مما لم يرَ مثله من قبل

ورأى الى جانب السرير مائدة نفيسة فيها نقوش جميلة وعليها آلة غريبة الشكل ادهشتهُ واذهلتهُ. وما كانت هذه سوى الالة المعروفة «بالتيلفون» المِقوَل

ولكن لم يكن يعلم كيف يستعملها

فكبس على زر فيها فظهر للوقت خادم. واطلعهُ على كيفية استعمالها قال: بعد ان يكبس سيدي على الزر يجعل هذين البوقين في اذنيه وينادي: هيا! ثم يقول: الخادم! مثلاً او القيم! او غيره من حشم القصر الذي يريده مولاي. واليك يا سيدي لائحة فيها اسماء حشم سعادتك

فقال ناصيف: حسن عظيم. يسعك الان ان تنصرف. ثم عاد الى نفض ما في الغرفة وصار يفتح الجارات ويلمس الامتعة ويجس الاثاث ويحدق النظر الى الرسوم والصور والنقوش ويتوضحها ويتهجى ما تحتها من أسماء المصورين والنقاشين.. ثم مر امام مرآة عظيمة ذات ثلاثة الواح فرأى فيها صورته فانقبض وقال: الى هذا الحد انا وسخ وقذر؟

ثم اسرع الى المقول (التلفون) وهو يقول في نفسهِ: لا بد من ان يكون في القصر من جميع ما اتمنى. ولا شبهة في اني اجد من

الثياب الفاخرة ما اظهر به كاحد الملوك . فنادى خادم الغرفة فاسرع هذا اليه

فقال لهُ ناصيف : ما اسمك ؟

قال : عبد سعادتك مسعود

فقال ناصيف : عليَّ يا مسعود بثياب فاخرة

فقال الخادم : اذا شاء سيدي ذهبت بهِ الى خزائن الثياب فيختار منها ما يريد ولكن لعل مولاي يريد اولاً ان يستحم ..

فلم يفطن ناصيف لما لمح الخادم اليهِ لغلاظة فهمهِ

فاجاب : نعم نعم . فاذهب بي الى الحمَّام وكانت الحمَّام ملاصقة لمقصورة البيك

ولا حاجة الى ذكر ما كان في الحمَّام من الادوات الثمينة والرخام الابيض واللوالب الفضيَّة التي تجري منها المياه المختلفة الحالات باردة وفاترة وحميمة . واني اضرب صفحاً عن سائر ما كان فيها من اللوازم والمقتضيات البالغة بنوعها حد الاتقان والكمال

فدخل ناصيف وهو يجرّ ذيول اطماره على ذلك البلاط جرّاً ثم خلع ثيابه واستلقى على ذلك البلاط الناصع وادار احد اللوالب الفضية فاندفقت منهُ المياه الصافية . واسرع المكيس وبيده ليف ونسيج فجعل يفرك جسم البيك — ولكن ما تعمل الماشطة في

الوجه القبيح – ويكشط الاوساخ المتلبدة على بدنه

ثم وافى مسعود خادم الغرفة وعلى ساعده ثياب ناعمة ووراءه خادم آخر يحمل خفين من جلد روسي ثمين

واقبل المزين فحلق للبيك وطيب شعره بالطيوب

وبعد ذلك اقبل الوكيل بالحلويات والمربيات على طبق من ذهب وقال معتذراً: لست ادري هل تروق هذه العجالة لسيدي . ولكن إنْ هي الا سُلفة فليتعلل بها مولاي ريثما تفد ساعة العشاء . سألت الله ان تطيب حمته

فجلس ناصيف على حجلة واخذ اللائحة بيده وجعل يتهجى ما فيها من اسماء الشراب والنقل فقال: حسن ! ولكن اما عندك شرائح ضان وشيء من « المعلاق »

قال: كل ما يأمر بـهِ مولاي حاضر ففي اي ساعة تريد ذلك

قال: عما قليل . . . ولكن لا يهنئني ان اتعشى وحدي

فقال الخادم: قد اعددت الطعام هذا المساء على المائدة الصغيرة وهي تسع خمسين مدعواً فلمولاي ان يدعو من يشاء .

وكان من شهوة ناصيف ان يدعو جميع الخدم والحشم لكنهُ بذل الوسع حتى ملك النفس عند شهوتها فقال: اقتصر في هذا

المساء على دعوة قيم القصر

فقال الخادم: في اي ساعة يريد العشاء مولاي

فاجاب ناصيف: نحن في الساعة السادسة والنصف. وعندي عدة اشغال يجب قضاؤها قبل العشاء

ثم وقف البيك وامر الخادم فذهب هذا به يطوفهُ في القصر فرأى فيهِ من الاندية الفسيحة والبيوت الرحيبة واسباب اللهو والبسط ما يقصر عنهُ الوصف وما ذكره بقصص الف ليلة وليلة. ولما دخل بيت السلاح اصابه خوف من كثرة ما شاهد فيها من انواع السيوف والخناجر والبنادق. وزار الموائد والحدائق والمطبخ وبيوت المؤنة والاصطبلات فاخذ منهُ العجب مأخذاً عظيماً. فقال للخادم أفي يدي جميع هذا

قال الخادم: نعم نعم وقد اشتراه مولاي البيك

قال: تقول قد اشتريت كل هذا ولكن هل اديت الثمن

قال الخادم: هذا لا شك فيه

فقال ناصيف: ذلك عجيب غريب! وهذه الخيول المطهمة!

قال الخادم: هذه وصلت مساء امس وهي من اصل عربيّ كريم وقد شُريت للسباق ولجرّ عجلات البيك ومركباته

فهتف ناصيف: أو عندي ايضاً عجلات ومركبات

فوقف الخادم وقفة المنذهل وقال: اني لاعجب لاسئلة سيدي

فكأني به قد اضاع ذاكرته

فقال ناصيف: حسن فهيا نرَ المركبات

قال: امرك يا مولاي. ولكن ليس هنا من مركبات سيدي سوى اثنتي عشرة واما الست الباقيات فهي في قصر صوفر

قال: أو لي قصر في صوفر ايضاً

قال الخادم: انك تمزح يا سيدي

وكان عجب ناصيف يزداد حتى لم يعد يعي ما يقول. وبعد ان ملك النفس قال: حسبنا هذا المساء. فهيا الآن الى العشاء

...

وبعد حين كان ناصيف جالساً الى المائدة بلباقة يعجز عن وصفها كل واصف. وانوار الثريات تنبسط عليه وعلى آنية الطعام فيكون من ذلك شموس ونجوم وكان القيم جالساً قبالتهُ وهو لابس ثوباً اسود وعلى صدره شارة تؤذن بانهُ صاحب وسام فاما البيك فكان في هيئة ولباس من يخرج من الحمام. وكان ستة خدام واقفين حلقة حول المائدة

فبعد ان تناولا شيئاً من العرق والسمك والبيض أُتي بالحساء. فالتفت ناصيف الى القيم وقال اريد ان اتحدث معك ببعض الامور

فاشار القيم الى الخدم فتواروا للحال

فقال ناصيف ارغب اليك الان ان تكشف لي الغطاء عن كل هذه الامور فقل لي : اصحيح ان هذا القصر هو لي بجميع ما فيه

قال: هذا لا يحتاج الى دليل

قال: من ادى اثمان ذلك. المرحوم عمي ؟

قال: لا. بل وكيل تركة عمك وهو وكل اليَّ ان اعد لك قصراً فلبيت لكن الوقت ضاق بي فما وسعني ان اتقنه اكثر مما هو الان. وان في يدي لوائح النفقات فاذا شاء سيدي ان يطلع عليها احضرتها. وقد انفقت في هذا القصر وقصر صوفر زهاء عشرة ملايين فرنك

فقال ناصيف: ليس هذا بكثير. ففي مدة عشرة ايام يمكننا ان نفي جميع ما علينا

قال القيم: نعم يا مولاي وقد كُلفت بان اقبض في كل يوم مليوناً فآتي بهِ الى مولاي. ولا يخفى على سعادتك انهُ يجب انفاق المليون تماماً في كل يوم

فقال ناصيف: نعم قد علمت هذا. فدبر الامر واقبض في العشرة الايام الاتية عشرة ملايين وأدِّ ما عليك. فليس لي اذن ان اقلق في هذه المدة... وبعد ذلك نرى كيف ننفق في كل يوم مليونه. اما الان فمر الخدم ان يدخلوا وان يسرعوا بالخمر المعتق

والطعام الطيب. وغداً اشاء ان يكون على مائدتي من ارباب الثروة واصحاب الوجاهة ما يزيدني جلالاً

فابتسم القيم سرًا وقال: ذلك لا يصعب على المال فبه نفعل ما نشاء وما نريد :

فهو اللسان لمن اراد فصاحةً   وهو السلاح لمن اراد قتالا

اما العشاء فكان فاخراً

واما القيم فاكثر من الاكل والشرب

واما البيك فافرط فيهما حتى اصابه تخمة وسوء هضم

فاسرع القيم وامر باستدعاء طبيب البيك

ولما اصبح الصباح نهض البيك من نومهِ متعافياً اذ لم يحدث من سوء الهضم ما يكدّر

...

زعم الفلاسفة ان المرء يتعود الفقر والشقاء فلا يعود يشعر بألمها. وكذلك يألف الانسان المسرة والرفاهية بل ربما كان تعوُّدُ هاتين الحالتين أقرب الى المرء من غيرهما

فما مرَّ على ناصيف الكسار في حالتهِ الجديدة بضعة اسابيع حتى صار يرى في طيب العيش امرًا اعتيادياً

..

واليك لائحة فيها خلاصة نفقاته في بضعة ايام

الثلثاء :— ١٢ —

ثمن احجار الماس وخواتم وفصوص ومصوغات وما اشبه	٧٥٠٠٠٠
ثمن سيارة بقوة مائة حصان	١٥٠٠٠٠
نفقات بناء دار عند «الصالومة»	٢٥٠٠٠
ثمن كتاب كبير فيه معرض من جميع انواع رسوم البريد	٢٥٠٠٠
اثمان اشياء متنوعة من عدة مخازن	٣٠٠٠٠
ثمن خاتم ثمين فيه فصٌ نادر المثال	٢٠٠٠٠
المجموع	مليون فرنك

الاربعاء :— ١٣ —

ثمن املاك في صور ومرج ابن عامر	٦٥٠٠٠٠
ثمن ساعة ذهبية مرصعة بالماس	٤٠٠٠٠
لفائف تبغ	١٠٠٠٠
ثمن زقاق خمر من سبعل وكساره والمتين . وثمن غير ذلك من انواع الشراب	٣٠٠٠٠٠
المجموع	مليون فرنك

الخميس : — ١٤ —

ثمن مخازن مشتراة في سوق الطويلة وسوق الزجاج ٨٠٠٠٠٠

ثمن آلات لهوٍ وموسيقى من فضة ونحاس مموه بذهب

وارد « الغدراسي » ٢٠٠٠٠٠

المجموع مليون فرنك

ومضى على البيك خمسة عشر يوماً وهو يشتري املاكاً وعقارات وخواتم ومصوغات وغير ذلك

ثم ارتدَّ بعد ذلك الى شراء صور قديمة ونقوش وتماثيل بخمسة عشر مليوناً . فربح من ذلك مصورو بيروت واصحاب الآثار القديمة في الشام وغيرها ارباحاً طائلة . وراحت الشعراء تشبب بجمال قصر البيك والصحف تُذيع عزة ومقدرة هذا الغني الجديد

. . .

مضى على ما ذكرنا ثلاثة اشهر والبيك يتقلب على بسط الرغد والهناء في رياض التنعم والسرور . ففي ذات ليلة قرع القيم باب مقصورته فصلح البيك من داخل . من ذا وما تريد

فاجاب القيم : انا . . افتح ! . فقال البيك : ما يكون ؟

قال : امر ذو بال وما كان من شأني ان انبهك اليه واحذرك منهُ فان ذلك يخالف مشيئة منفذ الوصية ومع ذلك رأيت ان اخطر سعادتك اننا انفقنا في هذا اليوم ٧٥٥٨٩٧ فرنكاً و٢٥ سنتيماً فقط

فقال البيك : وبعد ذلك ؟

قال : ولم يبق لوصول نصف الليل غير خمس دقائق . . فاذا عبرت هذه النهزة ولم تنفق سعادتك ما تبقى اي ٧٥ع ٢٤٤١٠٢ حل بك الخراب

فلطم البيك راسه وقفز من سريره وهو يقذف ويشتم وقال : كيف يمكننا ان نصرف الان هذا المبلغ العظيم . واسرع فلبس ثيابه وركض الى فناء القصر وهو لا يدري أين يذهب

وكانت الحوانيت مقفلة ولم يبق لنصف الليل غير دقيقتين

فحار في امره وكاد عقله يطير

لكنّ الله أنجاه وكان ذلك آخر عهد العناية بهِ

فبينما هو واقف متحير اذا برجلين اخذاه بخناقهِ وصاحا بـهِ : كيسك او حياتك ! ! . .

فاسرع ناصيف واخرج كيسه من جيبهِ وهتف : خذوا الكيس خذوه وفيهِ مبلغ وافر خذوه بورك لكم فيهِ

فلم تصل الدراهم الى ايدي اللصين حتى دقت ساعة الثكنة العسكرية فكان نصف الليل

. .

مرّ على ذلك بضعة اسابيع ونفقة البيك تسبب له في كل يوم قلقاً جديداً . وكانت المصاعب والعوائق تتزايد يوماً بعد يوم .

وأمست املاك البيك واسعة لا تحد. وكاد سوق الصاغـة يفرغ من الحلى. وشدّ ما ربحت من ناصيف مخازن المدينـة من مثل مخزن السيوفي وعرمان وبيرانجه واوروزدي باك والكفّ الاحمر. وفي آخر الامر سُدت في وجه البيك ابواب الحيل فلم يعد يعرف ماذا يبتاع فتعاظم قلقه واضطراب باله

فاستدعى القيم يوماً وقال لهُ: هل يمكنني السفر والسياحة

قال: نعم على شرط ان لا تجاوز حدود المملكة العثمانيـة. فليس لك ان تنفق خارجاً عن تخومها بارة واحدة

فلما كان الغـد ركب ناصيف متن السياحة وقصد بعلبك في قطار خاصّ ومعهُ مائة رفيق ثم توجه الى دمشق وهنالك ابتاع من بضائعهـا ومصنوعاتها ما كاد ينفـد ما في مخـازن الاصفر والكاتب والبيطار وغيرهم

ثم قصد مدينة حلب واضطر فيها يوماً ان يشتري بسبعمائـة وخمسين الف فرنك اشياء لا طائل تحتها وذلك حتى يُتمّ انفـاق المليون

ثم عاد الى طرابلس وركب البحر الى الاستانة فصادف فيها من الترحيب ما يليق بالعظماء ثم ابحر منها الى بيروت بعد ان قضى في العاصمة ثلاثة اسابيع

وفي احد الايام جذبهُ الاتفاق الى بحمدون قريتـه فانكره

اهلوها ولم يعرفوه وهو لم يعرف احداً منهم ايضاً

ومرّت بهِ السيارة امام البيت الذي ولد فيه . وجاز القرية حتى بلغ مطل «الشقيف» البديع . وفيما هو عائد داس كلباً . ولما وصل الى الحازمية رأى قرب جثوة الحجارة التي تركها في احد آصال تموز رجلاً يكسر الحصى وهو يشبهُ كل الشبه حتى كأنه اخوه

فاوقف البيك السيّارة ونزل منها وقال للرجل الله معك . . ما اسمك ؟

قال : اسمي منصور المكسر

قال : من اين انت

قال : من الشيّاح

قال : من اي حين انت تعمل هنا ؟

قال : من حين وُجد ناصيف الكسار هنا ميتاً . وقد قيل ان سيارة داسته وهو نائم امام هذه الكومة

قال : ماذا تقول ! امات ناصيف هنا سحقاً

قال : هذا ما بلغني

قال ناصيف : وحملوه ميتاً الى بحمدون قريتهِ

قال : نعم

قال : ودفنوه فيها ؟

قال : نعم دفنوه دفناً مدنياً في خارج المقبرة ولم يحضر الكاهن

جنازته لان الفقيد كان سكيرًا مقامرًا وخاطئاً مشهورًا ولم يُبدِ دلائل التوبة قبل وفاتهِ

فصاح ناصيف: دع ما تقول فانا انا ناصيف الكسار انا هــو ناصيف!

فقال الرجل: انك لتضحك وتمزح فناصيف قد مات وانا اعمل مكانه

قال: وتكسب مثلما كان يكسب اي خمسة غروش في اليوم

قال: نعم خمســة غروش وهي تكفيني فاني لا اشرب ولا اقامر فانا مقتنع بحالتي راضٍ بعيشتي اذ لا يمكن لجميع الناس ان يكونوا اغنياء

فقال ناصيف: اما انت بحاجة الى شيء؟

قال: بلى. الى ان تدعني وشأني فان مزاحك يُلهيني عن عملي ولست ارى من حديثك فائدة فاذهب في سبيلك

قال: لست ترى من حديثي فائدة!

قال لا! رُحْ رُحْ في طريقك. امض ودُس الناس بسيارتك بعيدًا من هنا لئلا اضطر الى تأدية الشهادة وحكومة هذه الايام لا تطاق

فركب ناصيف وسار يريد بيروت. فكان يحدث النفس بتلك الامور الغريبة والشؤون العجيبة فقال: يحسبني الناس

ميتاً وانا حي ومن اغنى اهل الارض. وليس ما يضايقني سوى السعي في انفاق هذا المليون المشؤوم

وحينئذ ذكر انهُ لم يكن قد انفق من مليون ذلك اليوم سوى ثلاثين بارة اعطاها مسّاح الاحذية. فكان من الحكمة اذن ان يبادر الى ايجاد سبيل للتخلص من هذا العبء الثقيل

وان صعوبة انفاق المليون كانت تتزايد يوماً بعد يوم وتتعاظم حتى صارت لهُ منشأ عذاب دائم. فضاقت بهِ المذاهب وسدت في وجههِ ابواب الحيل. وصار يأنف من الشراء والابتياع ولم يعد يرضيه شيء. وغدا كيس الدراهم لديه من اشق الاحمال

فعاد يتذكر الراحة التي كان يشعر بها ايام كان يكسر الحجارة وينفق في يوم الاحد ثلاثة او اربعة بشالك

وكان الاكثار من اكل اللحوم ورشف انواع الشراب قد ذهبا باشتهاء الطعام فضعف عقله وغارت ذاكرته ونحل جسمه

فاستدعى القيم يوماً وقال لهُ ايسعني ان اتسلى بالمقامرة

قال: نعم. ولكن المقامرة من شأنها ان تنبت لمولاي انواع الرزايا وتثمر اصناف البلايا. فقد يتفق ان تربح في اليوم مليوناً او اكثر او ان تخسر مثل ذلك. وان الوصية ولا يخفى توجب على سعادة البيك ان ينفق في كل يوم مليوناً لا اكثر ولا أقل

فأجاب البيك : جيد . فما نعمل الان ؟

فقلب القيم شفتيه وقال : ذلك اليك

فتأفف ناصيف ونفخ بفمه نفخ الضجر واليأس واسرع الى شراء املاك وعقارات ثم قصد سوق الصاغة وسوق الطويلة واياس

...

ولما كان اليوم التالي سلم اللائحة الى القيم مضبوطة محكمة

وعاش ناصيف كذلك ستة اشهر كاملة فلما دخل الشهر السابع حدث له حادث مكدر . فان الساعة السابعة كانت قد وصلت وكان في كيس ناصيف ٨٤٣٠٠ فرنك فضاق صدره وتراكمت عليه الهموم . فخطر في باله ان يذهب الى شاطىء البحر ويلقي المبلغ في الماء .

ففعل وعاد ظافراً مسروراً واستدعى القيم واعطاه اللائحة اليومية . واليك صورتها

فرنك ١٥٧٠٠٠ ثمن جواهر وبيوت الخ

٨٤٣٠٠٠ وقيمة ضائع

مليون المجموع

فلما اطلع القيم عليها حملق وشخص الى البيك وقال : أضعت ! .

قال : نعم اضعت ٨٤٣٠٠٠ الف فرنك وهذا ما يمكن

حدوثه لكل احد فان من الناس من يضيع ظُلّتهُ (شمسيتهُ) او قبعته او كتابه او امرأته . . وانا قد اضعت اليوم محفظتي ليس غير وفيها . . .٨٤٣٠ الف فرنك

فاجاب القيم : نعماً ! نعماً !. . وانسلَّ خفيةً

فلما كان نصف الليل سمع ناصيف جلبة ولغط خصام . فنشر اذنيه فسمع شخصاً يصيح : دعوني ادخل دعوني . وكان الخدم يصيحون ويتعونه . فناداهم القيم ان اتركوه ثم دنا منهُ وقال له : ما تريد يا صاح؟

قال : انا رجل امين وذو ضمير . وقد وجدت على شاطىء البحر محفظة فيها . . .٨٤٣٠ الف فرنك ولا شك انها لسعادة البيك فاتيته بها

فلما سمع ناصيف ما سمع نهض مذعوراً مرتجفاً

وقرع القيم الباب ودخل بالرجل على ناصيف وقال : دونك المبلغ الذي اضعتهُ

فصاح البيك : ويلك يا شقي لقد مضى على نصف الليل خمس دقائق فأتيت تنزل بي الخراب

فقال القيم : قد بقي لك وسيلة واحدة يمكنك ان تنجو بها مما يتهددك

فهتف ناصيف : ما هي ؟ . .

قال : فكّر فلعلك تجدها . ويالشؤم حظك اذا لم تظفر بها . .

اما الرجل فالقى المحفظة على السرير وتوارى للحال

فقال القيم : قد فات الوقت يا سعادة البيك ولو فطنت لان

تهب المبلغ لذلك الرجل الامين لكنت نجوت

فصاح ناصيف: هيا استدعه!

قال القيم: فات الوقت وحل بك الخراب

فهلع قلب ناصيف وأخذهُ اضطراب شديد. ونظر الى القيم ليرى اذا كان كلامه مزحاً ام جداً. فابصر الشرر يتطاير من عينيهِ ورأى قامته تكبر شيئاً فشيئاً وتطول حتى اوشكت ان تمس سقف الغرفة. فزاد هذا المنظر المخيف في اضطرابهِ وكاد يصيبه الجنون

ولم يكن القيم في الواقع الا شيطاناً «عصرياً» فاخذ يضحك من ناصيف ضحك الهزء والسخرية. ثم فتح فاه فاندلع منهُ لسان لهيب وقال: ياناصيف لقد سقطت سقوطاً عظيماً. لكنك لست اول سارٍ غره قمر. وما انت الا واحدٌ من الوف قد اختبرتهم فزلت بهم القدم وغُلبوا

فانطرح ناصيف على قدمي ابليس وهو يعوع ويقول أيحل بي الخراب لانهُ ما وسعني ان انفق في هذا اليوم مليوناً

فاجاب ابليس: نعم! لان ذلك لم يكن عليك صعباً

فقال ناصيف: قد بذلت وسعي وسعيت جهد طاقتي فلم أرَ باباً مفتوحاً في وجهي. فقل لي ما كان يجب ان اصنع ولم اصنع؟

فاجاب ابليس. كان الواجب عليك ان تنظر الى جميع الطرق التي يمكنك ان تنفق فيها

فهتف ناصيف: ماذا ألم انظر ؟

فقال ابليس: كلا !

فاجاب ناصيف: قل لي: هل تركت سبيلاً لم انفق فيه

قال: نعم قد تركت

قال: اين هو ؟ فاجاب ابليس. فتش وابحث

قال: قد فتشت وبحثت فلم اهتدِ

فتصاب ابليس اذ ذاك وصاح بصوت عظيم: بلى قد سهوت عن الولوج في تلك الطريق التي سددت مدخلها بالاشواك وطالما سعيت فصددتك عنها بالشواغل والموانع. وما تلك الطريق الا طريق «الصدقة»

...

نعم ان ناصيف نسي الصدقة وغاب عنهُ ان في بيروت وسوريا ويجمدون قريته من جماهير المساكين والفقراء ومن المياتم والملاجئ وبيوت العجز والمرضى ما كان يمكنهُ ان يخفف عنهم بمليونه اليومي اعباء الويلات. فراح يرتع في بحبوحة العيش ويجني ثمار الهناء حتى ازدهتهُ النعمة وابطره حسن الحظ فغفل عن الصدقة وهي الفضيلة التي تكسو الاغنياء ثوب المجد وتحببهم الى الفقراء وترفع مقامهم في الدنيا وتجزل لهم الاجر في الآخرة

نسي ناصيف ذلك فاستيقظ من غفلتهِ فرأى نفسه على طريق

الحازمية امام جثوة الحجارة والصاقور بيده

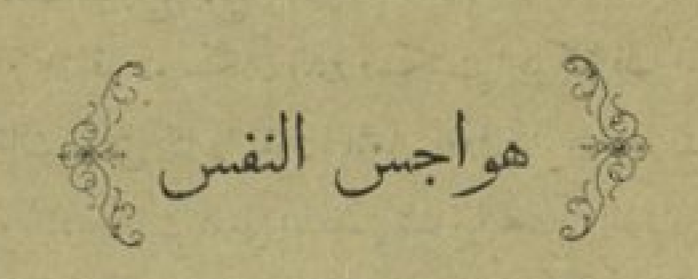
وكانت الشمس تتوارى بالحجاب وتودع الافق باشعتها الذهبية

. . .

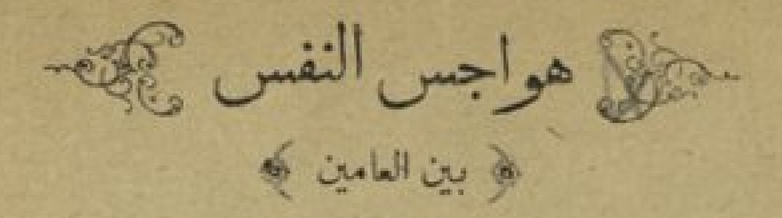
أحلماً كان ما جرى لناصيف ؟

لا اعلم. وانما اعلم ان ناصيف استيقظ وهو يمسح عينيه ويقول ترى. . ما جرى لي؟ . . .

ومرت اذ ذاك عجوز مسكينة امامه فاسرع ناصيف ومد يده الى جيبه واخرج متاليكين واعطاهما العجوز وقال: خذي يا عمتاه. . خذي وصلي لله من اجلي . . .



هواجس النفس



هواجس النفس

بين العامين

ضافني السهاد ليلة امس فسامرته حتى سئمت فعفته ورحت استدعي النوم الساعة والساعتين فبقي شارداً فقلت: لا حول ولا . . ثم اشعلت المصباح ادفع به وحشة الظلام

وكان قد نام سكان الدير وسكنت الحركة فلم اعد اسمع الا دقات ساعتي كأنها تقول: الزمان يزول . . . فشعرت بوجيب قلب وخشوع فقلت لنفسي: يا نفس الك من هـذا السهاد فرصة ثمينة فاغتنميها وتأملي قليلاً في شأنك فعما قليـل تصيرين الى موقف بين عامين مودع ومسلم وتلك وقفة قلّ من استفاد منها. راجعي كتاب الماضي وافتحي كتاب المستقبل لكنّ الامس قد عرفتهِ فتطلعي اذن الى الغد. جولي في فضـاء الخيال ثم لقني قلمي ما يمرّ بك من الهواجس واملي عليه ما به تشعرين! •

فشعرت ان نفسي قـد توقفت هنيهة كأنها رازحـة تحت احمال الانفعال والتأثر . هـذا وحفيف الاوراق يزيد في وحشتي وعقرب الساعة لا يزال يسير فنظرت فاذا العام قد دخل في النزاع واوشك ان ينقضي أجله

فانقبضت اذ ذاك نفسي واندفعت تقول :

الى اين ايها العام انت مهرول في هذا الليل الدامس ؟ وفي احدى يديك مشعل يكاد ضوءه ينطفي وفي الثانية منجل مفلل .. وعلى مَ أخذتَ معاجيل الطرق وعلى ظهرك احمال الايام تنوء بها ؟ .. رويدك رويدك فان طريق الماضي وعرة متحدرة والظلام مدلهمّ وانت شيخ مسن

فالتفت اليّ فاذا وجهٌ جعدتهُ الهواجس وشعرٌ متلبدٌ شعثتهُ الوساوس وكتفان تقوستا من قِراع النوائب وقال وهو مسرع : « دعني لا تلهني فان الاعوام رفاقي قد تقدمتني الى محطة الابدية . » ... ولم يكد ضياء مشعله يتوارى في ظلام الزمان حتى قرع اذني صوت الساعة الكبيرة فكان نصف الليل !!! ..

...

فالتفتُ اذ ذاك استقبل تباشير العام الجديد فرأيته وقد أقبل على مركبة ملكيـة لابساً حلة الشباب البهيـة فتفرست في تلك المركبة الكبيرة فاذا فيها من الذخائر العجيبة ما يكاد القلم يقصر عن وصفه

رأيت فيها اشواك الشقاء وقد اشتبكت بازهار الهناء ومن ورائهما برفير الملوك وأطمار رثة تبين من خلالها يد المتسول مفتوحة للاستعطاء وسريرٌ يبدو منه رأس الطفل الصغير ونعوش اغنياء

وتوابيت فقراء . وسمعت ضحكاً وبكاء . ورأيت عدلاً رافعاً لواء الحق وظلماً ناشراً راية البطل وفضائل بصورة راهبة قد جثت امام سرير المنازع ورذائل شنعاء بهيئة السكارى . ورأيت النميمة تدبّ عقاربها والرصانة كالاسطوانة الراسخة والشراهة كأنها حوتٌ على مائدة والقناعة وقد نبتت حواليها اعشاب النساك والزهاد الى اشياء أخر كثيرة من مثل بندقية قانص الطائر وشبكة صائد السابح وسكة الفلاح وعكاز الاعرج وسرير المقعد وشبّابة الراعي وريشة المصوّر وقلم الكاتب وكتاب الزاهد ولجج فاغرة فاها واوبئة تنشر جراثيمها ونيران يتصاعد لهيبها ورياح تعصف ورعود تقصف وسكون وسلام وحروب ودماء

فبهتُّ امام هذا المشهد الهائل ثم قلت : يا نفس لقد رأيت ما رايتِ فقولي لي الان ما تشتهين في رأس هذا العام والى م تتوقين ؟ ثم قلت : مهلاً فاني قبل ان تختاري أودّ ان اريك بعين الحقيقة ما قد رأيته بعين الفكر

. . .

لما تنفس الصبح كنت على ظهور « الاشرفية » حيث يبدو للناظر بقعة خضراء بسقت فيها الاشجار تطرد تحتها مياه النهر وهي تنساب متسابقة الى البحرِ فتغور في اللجج . فجلستِ على صخرٍ وقد حان وقت بزوغ الشمس وسكن نسيم الصبح فراحت

العصافير تتنقل على الاشجار وأخذت الطبيعـة تنهض من سبات النوم والحياة تتجدد في الاعشاب والدخان يتصاعد من فوق البيوت حيث تسمـع قلقلة المفاتيح والاقفال وصرير الابواب وعويـل الاطفال. ثم اخذت المناظر تتضح شيئاً فشيئاً وما هي الا بضع دقائق حتى بزغت الشمس من وراء الافق ترسل حرير شعاعهـا يمسح دموع الازهار. وكانت بارتفاعهـا تشرف على الغيوم المنتثرة فتفر هذه مسرعة امام ملكة الطبيعـة. وصارت فقاقيع مياه النهر تتألق لامعة كانهـا عيونٌ تفتح وتغمض. والتلال توقظ السهول لترتدي أردية الجلاء.

فقلت: يا نفسِ امامك من الطبيعة مشهـد طالما شبب به الشعراء فتطامي وابتهجي وقولي لي أتريـدين ان انصب لك على هذه التلال خيمة منها تملكين هذه البرية الجميلة؟ . . . فآنست من نفسي انعطافاً كانهُ يقول: أجل ان المشهد لباهر ولكنَ ليس هنالك كل رغائبي

فقلت لهـا: ارفعي النظر قليلاً وانظري الى «لبنان» العزيز وطن الاسود وارض الاوليـاء. هاكِ «صنين» وقـد جلس على القنة شيخاً جليـلاً فصبحيهِ مع الشمس في رأس العـام وغني له شيخوخة صالحة واطلبي لبنيه ان لا يقلقوا راحة ابيهم الشيخ وقد شيبت رأسه الاعوام وحدَّبت ظهره الايام. تلذذي بمـا يحمله

اليك النسيم من منعطفات الوديان واستنشقي شذا الارز ونفحات الرياحين. نقلي النظر في هاتيك القرى المنتثرة هنا وهناك وانظري القرويين وقد هبوا لاشغالهم . خذي النظارة وانظري الرعيان على هاتيك الروابي وقد سرحت قطعانهم ترعى في المراعي الخصيبة . انظري الشبابات في أيديهم ولو كنا على مقربة منهم لسمعنا الحانهم الرقيقة . وها انّ المكارين ايضاً ينزلون في معاجيل الطرق وهم يترغون على ظهور دوابهم ويتغنون « بالميجانا والعتابا » . آه ما اجمل الجلوس في ظلال تلك الاشجار الوارفة وما أحلى المقام في هذا الجبل المقدس. فقولي لي الان أتريدين أن تكوني أميرةً على لبنان فتحيي فيه الشهامة والمروءة وتُرجعي اليه ما ماتَ من الفضائل الى الحيوة وتقلعي ما يُزرع فيه من زروع الفساد فتخفق فوق روابيه راياتُ الأمن والسلام ؟

فتململت ثمّ قالت: ذلك من أفضل الامور ولكن ليست لذّتي في التسلط على الشعوب

فعجبت لأمرها وذهبت بها الى شاطىء البحر وهنالك الحصى البيضاء منتثرةً فوق الرمال كانها اللآلىء على بساطٍ من حرير. وعلى الشاطىء صيادٌ مشمرُ الساقين وقد غاصت قدماه في زَبد الامواج وألقى الشصّ في الماء ووقف ينتظر النصيب ، فأسرعت الامواج الينا كانها تريد السلام فكانت تحني الرؤوس

وتعود الى اللجج . وهنالك قوارب نشرت الشراع فهبّ فيها نسيم التوفيق فمخرت تشقّ المياه تاركة من ورائها خطوطاً طويلة لا تلبث أن تغمرها المياه

ثمّ صفرت باخرةٌ ومرّت ترشق الفضاء بدخانٍ يحموم وعلى ظهرها المسافرون يلوّحون بمناديلهم وداعاً لمن يشيعونهم بالعيون والقلوب

فقلت لنفسي : أتشائين السفر الى الاصقاع البعيدة فنسيح ونتنزّه في جنات الاندلس ونرى ما ترك العرب فيها من آثار العظمة ثم ننتقل الى فرنسا ربّة البدائع . ثم نيممُ ايطاليا فنفكه السمع بالانغام الموسيقية وذلك مما يطيبُ لك جدّاً ونشخص الى رومة مقام السيادة المسيحية ونزور الدياميس حيث رفات الشهداء ومن هنالك نتوجه الى المانيا فنتوغلُ في غاباتها . ونرتحل الى روسيا لنرى قبابها العالية ونرسل النظر في هاتيك السهول الواسعة . ثم نرجع الى بحر الروم فنصعد من يافا الى الارض المقدسة فنزور المغارة التي بزغ منها نور الخلاص وجرى ماء الحيوة وبستان الزيتون والجلجلة التي تتبرّك الشفاه بلثم ترابها . ثم نجتاز مضيق السويس الى البحر الذي عبره بنو اسرائيل بالاقدام ومن هناك يمتد نظرنا الى بادية العرب ارض الشعراء والى افريقيا فنجتازها من اهرام الفراعنة الى ارض الترنسفال التي حشا الله جوفها

بالالماس ونمرّ بشواطىء الهنـد حيث اللآلى، ونتفرج على الاواني الصينية البديعة الصنع. واذا شئت واصلنا السير الى اليابان فاميركا فاوستراليا ولا ندع ارضاً وطئتها اقدام الرّحل والسياح الا دخلناها. فهل تسرّين بذلك ؟

فاجابت: حبذا الاسفار ففيها نزهة الابصار والافكار ولكن ليس في ذلك ما يشبع رغبتي ويتمّ لذّتي

فحرت في امري وقلت لهـا هلمي الى الحقول فنبذر البذور ونستغل الغلال ونشحن السفن ونتجر التجـارات الواسعة ونعدن المعادن ونكثر من المعامـل فنربح الارباح الطائلة ونجمـع من الذهب القناطـير المقنطرة فنبني الدور ونشيد القصور ونكثر من الخدم والحشم وندعو بالمغنين والمطربين والراقصين ونأدب المآدب ونحتسي كؤوس الشراب مع الندمـاء والاحباب. فما تقولـين في ذلك. أما تشتهين ان تسبحي في غنى الارض وملاذها ؟

فعبست وقالت: كلاّ ! .. ليست في ذلك راحتي !

فقلت: لعلّ الدرسَ يطيب لها. فسألتها: اتريدين الانصباب على الدرس لتكوني في مستقبل الحين عالمةً في الطبيعيات والكيميا والرياضيات والفلسفة والطبّ. فتكشفين سرّ الكهربا. وتوسعـين حدود علـم النجوم وتظهرين اجساماً جديدة وتخترعين قواعـد حسابية وتكشفين عن ادقّ اسرار النفس وتوجدين دواء لكـل

داه . أو تودّين أن تكوني موسيقياً بارعاً يتسلطُ على النفس بانغامه فيضحك الثكلى ويسيل أجمد العيون. أو تشتاقين أن يكون لك ريشة تحفرُ أبدع ما اتى به رافائيل وميكائنج أو قلمٌ يصوّر ارقَّ العواطف فيلقي في زوايا النسيان اولئك الشعراء المشاهير هوميروس وفيرجيل وامرأ القيس وشاكسبير ودانت وراسين. . أو أن تكوني خطيباً مصقعاً يقتاد الشعوب ويهزُّ بقايا آثينا وروما وطن أمراء الخطابة. أو نقاشاً يُدهشُ أرواح اليونان في قبورها . او قائداً يكسرُ على ركبته سيوف الاسكندر والقيصر ونابوليون ؟ . واخالك الآن لا ترفضين

فتوقفت ثمّ قالت : انّ مجد العلوم والفنون لما يفضلُ على جميع ما سواه. ولكنَّ رغبتي فوق كل ذلك ؟

فوقفت وقفة المتحير وقد فرغت جعبةُ مسائلي فقلتُ : وَيكِ ان في امركِ لعجباً ! لقد عرضتُ عليكِ كلّ ما يتوقُ اليه المرء في هذه الدنيا وأنتِ عن كلّ ذلك ترغبين فلقد والله أبرمتني وأسأمتني .. فالى الديْر!

ثم قمتُ راجعاً الى غرفتي مطرقاً مبلبل البال وقضيتُ النهار مفكراً

ولما كانت العشية خشيت ان يضيفني السهاد كما ضافني أمس. فصعدت الى السطح قرب الساعة الكبيرة وكانت الشمس

في المغيب والدغش مقبل ليغشي الارض فكانت المناظر تذهب تباعاً وما هو الا قليل حتى ارخى الليل سدوله وغيب البرية الظلام . فظهرت النجوم تتألق في الفضاء ببهاء يسحر العيون ويأخذ بمجامع القلوب

وكانت نفسي اذ ذاك كمصباح يحوم حوله ألوف من الفراش والهوام . وانني لكذلك اذ لاح لي خاطر جديد فناجيت نفسي قائلاً يا نفسي لقد رفضت كلما عرضته عليك من امور هذه الدنيا فلم يبق الا ان أسألك امرًا واحدًا: أتريدين ان نركب طيارة تطير بنا الى ذرى الفضاء فنكون على مقربة من الكواكب والنجوم فنراعي بهاءها ونعجب لاتساعها وكثرتها . ونسبح فيما لا نهاية له من الفضاء ومن هنالك نشرف على الارض وما فيها ونشاهد البحار والسهول والجبال فهلاّ ترضين !! . .

وهناك انتصبت عابساً شاخص العيون انتظر ما تجيب

فرأيت ان نفسي قد انقبضت واجتمعت كعصفور يتحفز للطيران حتى حسبت أنها تقول . نعم ! لكنني ارتددت الى الوراء اذ انتفضت وقالت بلهجة الموبخ : لا ! كلا !!! . .

فاخذ مني العجب مأخذه فالتفت اليها وقد ملىء فمي بكلمات اليأس والقنوط وقلت : يا نفسي ! . .

فقاطعتني الكلام وقالت : مهلاً ! . قد طلبت الي ان اهجر

الارض فلبيك ولكن اعلم اني لا اكتفي بالوقوف بين الارض والسماء وانما اشتهي وارغب واتوق ان اخترق الفضاء واتغلغل بين الكواكب والنجوم فاجتازها حتى اصل الى الذي خلق الكواكب والنجوم وأوجد المال والجمال وابدع العلوم والفنون وبسط الارض ورفع السماء حتى اصل الى

الله !

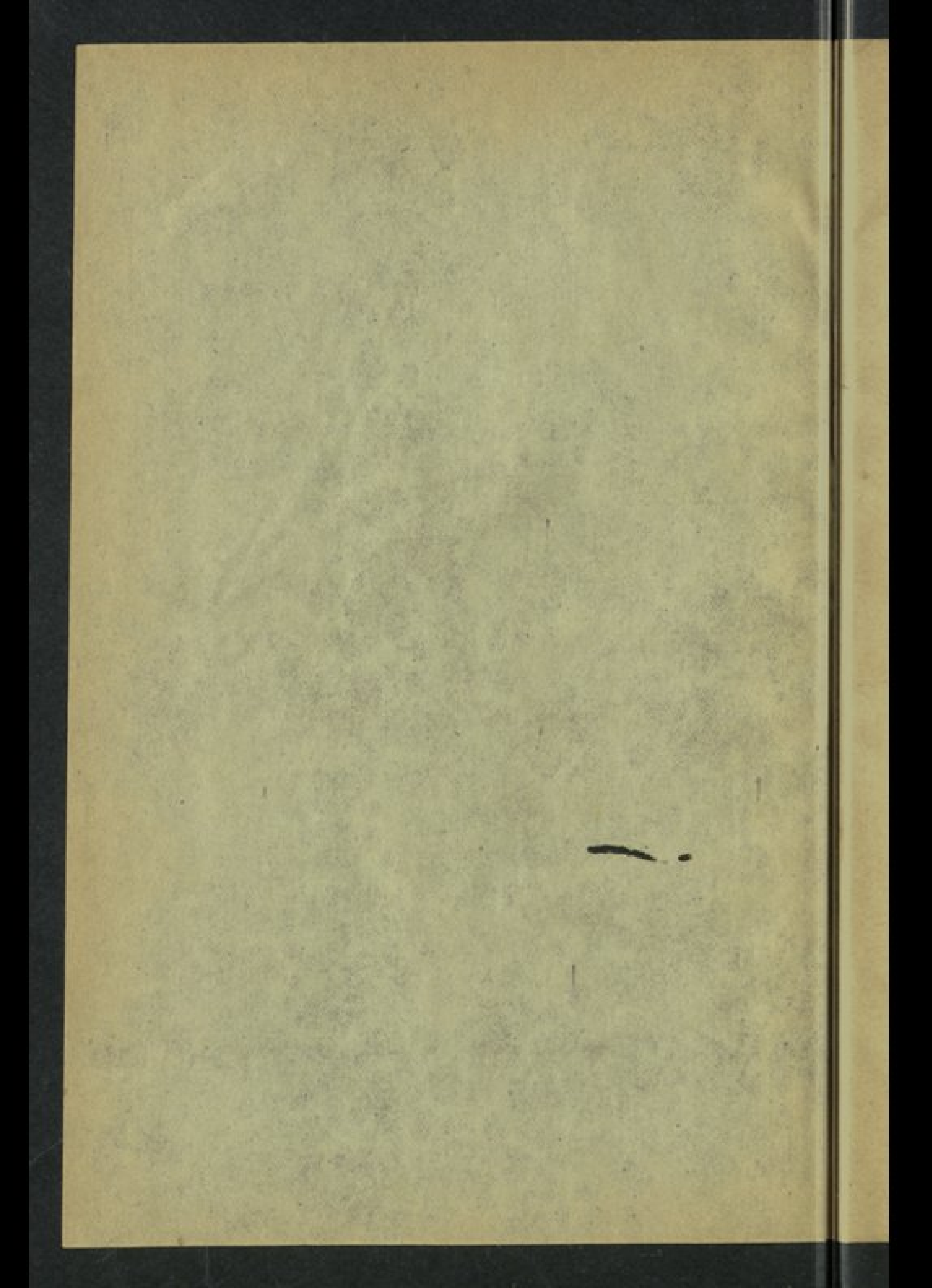
فهو خيري الاعظم وفيه محط رغائبي ومجتمع اشواقي

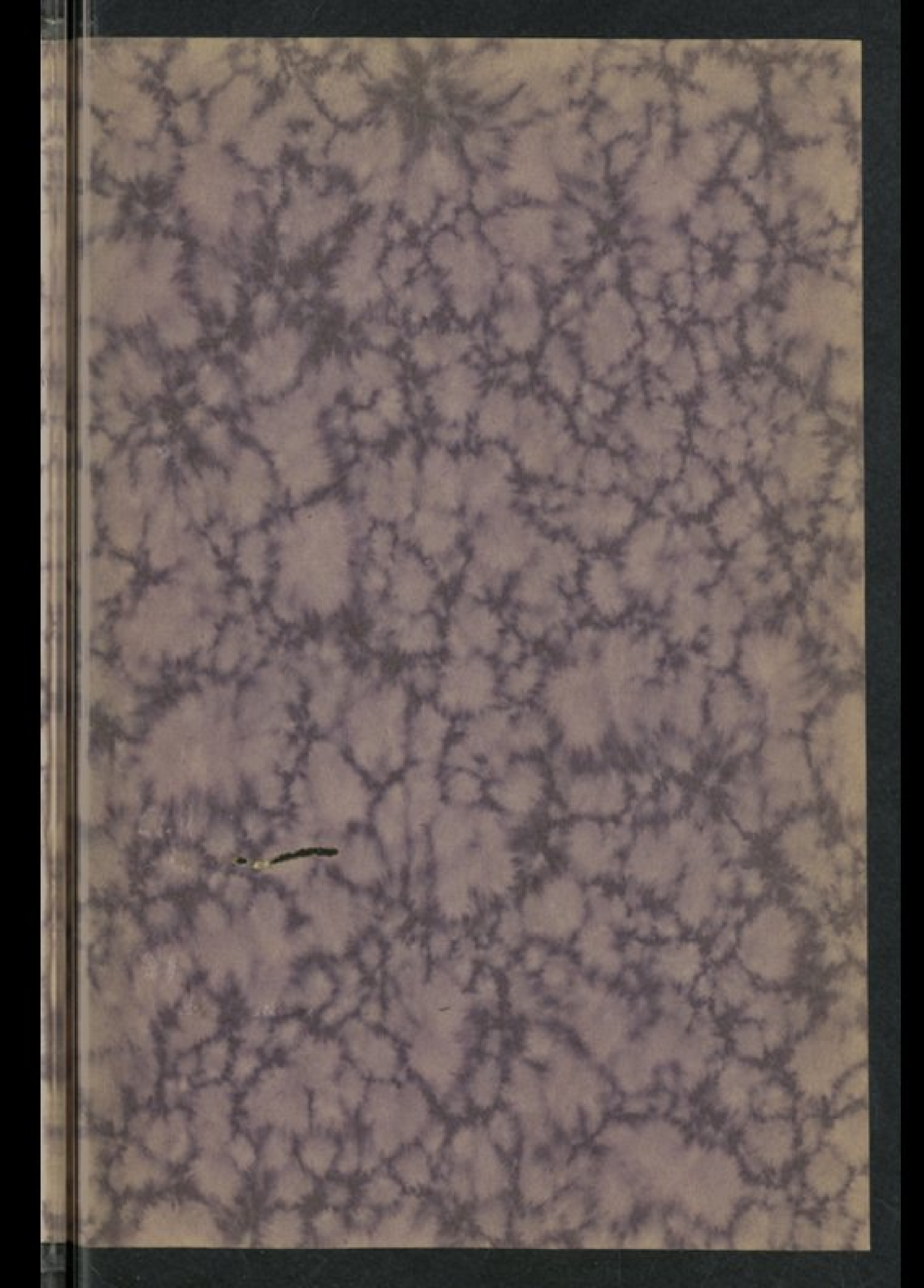
...

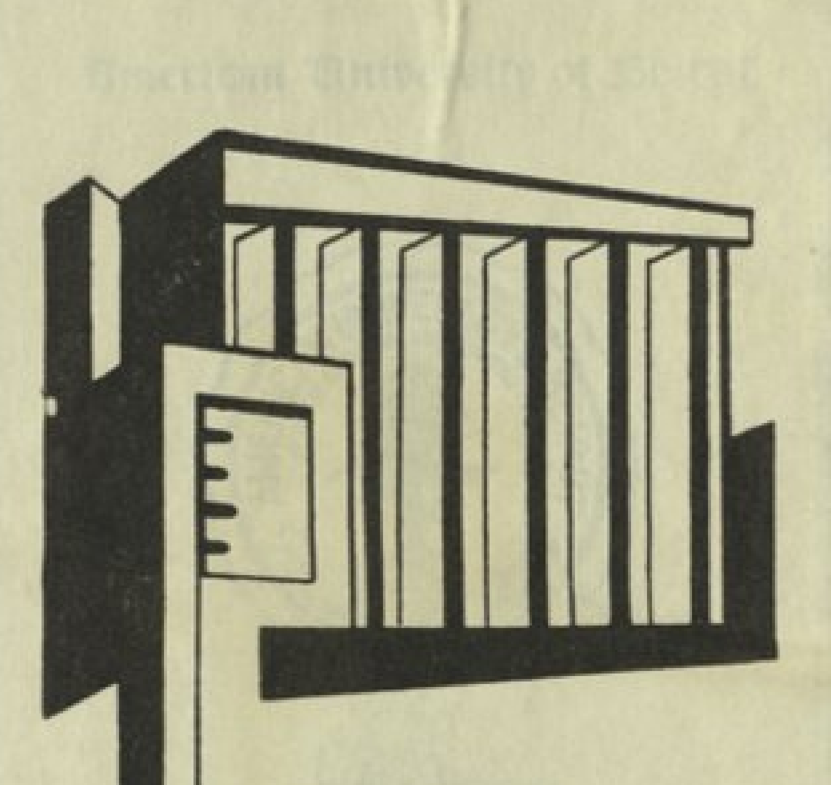
وبعد ان اطلعت على رغبة نفسي رجعت الى غرفتي مطمئناً ساكناً وقلت : اللهمّ اجعل هذا العام عام اقبال وفلاح بمنك وكرمك يا ارحم الراحمين



فهرس






AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

